الفصل الثالث

التطوير في مناهج الدعوة ووسائلها في الواقع المعاصر

المبحث الأول: مشروعية التطوير وضوابطه

المبحث الثاني: الواقع المعاصر وعوامل التطور

المبحث الثالث: مناهج دعوية أفرزها الواقع المعاصر

المبحث الأول: مشروعية التطوير وضوابطه

تمهيد:

سبق أن بينا أن التطور سنة من سنن الله في هذا الكون، وأنه واقع لا محالة لاختلاف البشر واختلاف ظروفهم وبيئاتهم وأحوالهم المختلفة من عصر إلى عصر.

كذلك فقد استعرضنا مسيرة الدعوة الإسلامية عبر العصور ابتداء من عصر النبوة إلى العصور المتأخرة وبدايات العصر الحديث، ورأينا كيف أن منهج الدعوة قد تأثر في جميع هذه العصور بظروف وأحوال الناس المختلفة في تلك العصور والبيئات المختلفة، وكيف كان منهج الدعوة الإسلامية في تلك العصور بمثابة رد الفعل للمؤثرات المختلفة والظروف الحادثة مما يؤثر على اعتقاد الناس والتزامهم بأركان هذا الدين وواجباته.

وقبل أن نتحدث عن كيفية تطوير الدعوة في الواقع المعاصر، وقبل أن نعرض مقترحاتنا لهذا التطوير نريد أن نطل إطلالة سريعة على العوامل والمؤثرات الخارجية والداخلية التي جدّت في العالم في هذا العصر وأثرت تأثيرًا كبيرًا على مسيرة الدعوة الإسلامية، كما أثرت تأثيرًا كبيرًا كذلك على ظروف الناس وأحوالهم وأعادت تشكيل عقيدتهم وثقافتهم وأفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم ومختلف مجالات حياتهم وأنشطتهم وأدت إلى إفراز العديد من المناهج الدعوية المختلفة التي سوف نقف على نماذج منها في مبحث من مباحث هذا الفصل.

مما يقتضي أن يراعى ذلك كله في رسم معالم منهج الدعوة في الواقع المعاصر بحيث يراعى فيه تقديم الجانب الإيجابي من المعادلة في مقابل تلك الجوانب السلبية التي سنعنى بتصويرها في هذا المبحث من الرسالة.

كما سنعقد مبحثًا قبل ذلك لبيان حكم التطوير في منهج الدعوة ووسائله، وقيود ذلك وضوابطه، نظرًا لأن من الناس من يرفض التطوير برمته في منهج الدعوة ووسائلها ويعدّ ذلك من قبيل البدع ومحدثات الأمور، ومنهم من يفتح الباب على مصراعيه بحيث يدخل في وسائل الدعوة ما يعد من الوسائل المحرمة متذرعًا بالقاعدة الميكافيللية (الغاية تبرر الوسيلة).

والحـــق أن أمـــر الإسلام دائمًا وسط بين الإفراط والتفريط، فيحتاج الأمر إلى ضبط الأمـــور وتفصيل ما يجوز وما لا يجوز من الوسائل وبيان ضوابط هذا الأمر وقواعده التي يحـــتاج إليها عند التباس الأمور ثم يأتي المبحث الأخير وهو بيت القصيد وهو عن كيفية التطوير في منهج الدعوة ووسائلها في الواقع المعاصر ويشمل إعادة النظر في منهج الدعوة وبرنامجها بما يتفق مع معطيات الواقع المعاصر وتحدياته ويتخلل ذلك عرض المقترحات في تطويـــر الوســـائل الدعوية التقليدية واقتراح الجديد من الوسائل في ضوء تقنيات العصر الحديث ومتطلباته.

المطلب الأول: مشروعية التطوير في المناهج والوسائل

"لقـــد تعرضـــت اهـــتمامات دعاة الصحوة الإسلامية لاستقطاب حاد حول قضية الوســـائل الدعـــوية، وهل يجب أن تكون توقيفية، أم أنه يجوز اختراعها وابتكارها دون خـــوف من مَذَمَّة الابتداع؟ والحق الذي لا مِرْيَةَ فيه أن هذه المسألة من المسائل التي ينبغي ردُّها للكتاب والسنة، واستقراء عمل السلف وسبيلهم مع اعتبار كلام الأئمة المعتبرين من أهل السنة والجماعة"[1].

لقد اشترط العلماء شروطًا لشرعية الوسيلة الدعوية منها:

١- ألا تكون الوسيلة محرمة في ذاتها:

فينبغـــي في الوسيلة الدعوية أن تكون مشروعة في ذاتها؛ وذلك لأن العلماء وإن اتفقوا علـــى أن الوسائل لها حكم المقاصد، فمعلوم: "أن الله تعالى كما تعبدنا بالمقاصد والغايات قـــد تعبدنا كذلك بالوسائل المؤدية إليها، فكما يجب أن تكون الغاية مشروعة، فكذلك يجب أن تكون الوسيلة إليها مشروعة[2].

فلقـــد ســـئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن رجل تاب على يديه جماعة من السكارى،

---

(١) رضا بن أحمد صمدي: ٣٠طريقة لخدمة الدين-دار الوطن-مصر-الطبعة الأولى- (٥٢-٥٣).

(٢) تعرضـــت لتفـــصيل هذه النقطة في كتابي دارسات حول الجماعة والجماعات- مكتبة التابعين- القاهـــرة- الطبعة الثانية- (١٤١٦هـــ-١٩٩٦م)- (١٤٩)، وقد قدم له وقرظه فضيلة الأستاذ الدكتور/ سعود الفنيسان عميد كلية الشريعة سابقًا بجامعة الإمام بن سعود.

ووسيلته في ذلك أنه يجمعهم على السماع المباح، فيلهيهم بذلك عن الشراب فأفتى بأن هذا الرجل جاهل وأن في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ غنية[1].

فلم يبح لهم هذه الوسيلة نظرًا إلى صحة المقصد، وذلك لأن تلك الوسيلة لم تشرع للتعبد بها[2].

وأرى أن ما ذكر عن ابن تيمية في هذا الصدد لا ينبغي أن يفهم منه أنه لا يجوز تغيير المنكر بالوسائل المباحة لصرف الناس عن المنكر، فهذا لا يخالف فيه عاقل.

وذلك لأن هذه القصة المذكورة عن الإمام ابن تيمية غاية ما تدل عليه أنه رأى أن هذا الرجل الذي يصرف الناس عن السُّكر بالسماع المباح جاهل لأن ما يفعله لن يؤدي إلى تغيير المنكر وتركه، وذلك لأن هذا الفعل لن يؤدي بهم إلى النفرة من الخمر وترك إدمانه، بل سيؤدي بهم إلى إدمان أمر آخر هو السماع، ولعل وصف الإمام ابن تيمية هذا الرجل بالجهل إنما هو من جهة اعتقاد هذا الرجل أن هذا السماع مباح؛ لأن هذا السماع -غالبًا- إنما هو السماع الصوفي الذي ذمه ابن تيمية وغيره من العلماء لما فيه من مخالفات شرعية عديدة ترجع إلى الإخلال بآداب الذكر من جهة رفع الصوت والجهر والخضوع بالقول وعدم الخشوع والتضرع مع التمايل والتخنع والتكسر، أو من جهة ما يشتمل عليه من المعاني الباطلة كالمغالاة في مدح النبي ﷺ بما يخرجه عن مقام النبوة إلى مقام الألوهية، أو من جهة ما يصحب ذلك الغناء من آلات اللهو والموسيقى، مع ما ورد في تحريم المعازف.

أو كونه من كلام الفحش والخنا والعشق والفجور الذي لا يجوز سماعه.

فهذا السماع على هذا النحو إنما يدعو لما يقترن به غالبًا من السكر والشراب فقلما يخلو مجلس طرب من شراب وسكر.

---

(١) انظر: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: مجموع الفتاوى- جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم وساعده ابنه محمد- دار الرحمة- القاهرة- (١١/٦٢٠) وما بعدها.

(٢) يراجع كتاب: جماعة المسلمين مفهومها وكيفية لزومها لصلاح صاوي- (ص٧٣)؛ حيث نقل عن ابن القيم والقرافي ما يدل على أن للوسائل حكم المقاصد.

فلعله من هذه الجهة وصف هذا الرجل بالجهل، فهذا الفعل الذي يريد به صدّهم عن السُّكر إنما سيؤدي بهم إلى إدمان فعل آخر يدعو إلى السكر ويحث عليه فيجب تركه من بـــاب ســـد الذرائع، وإن كان مقصد فاعله لجهله أنه من باب الوسائل التي تأخذ حكم المقاصد.

فلو أنه شغلهم عن هذا السكر بوعظ أو قصص أو ذكر أو تلاوة أو علم أو نحو ذلك لمـــا كـــان ثمة تردد في إباحة مثل ذلك لكونه مما يزجر المرء عن هذا الفعل المشين لكونه معارضًا له ومضادًا في الطبع منفرًا منه.

ومـــن ثم فليس ثمة دليل على منع استخدام الوسائل المباحة في الدعوة إلى الله لاسيما الوســـائل المحققـــة لمقاصد الدعوة، والتي لا تنافيها في مقاصدها، ولا تشتمل على مخالفة شرعية.

وهـــذا لا غبار عليه، ولا يعكر عليه إلا شبهة تعرض لقائل يقول: إن الدعوة إلى الله تعالى عبادة شرعية، وهذه العبادة لا تجوز إلا بما هو مشروع في دين الله تعالى، وذلك لأن الأصل في العبادة التوقف والمنع إلا لما صح به الدليل، ومن ثم فإن الاحتجاج بكون الفعل مباحًا لا يكفي حتى يرد الدليل بمشروعيته في الدعوة إلى الله تعالى.

وهـــذا كلام وجيه ولكنه يحتاج إلى توجيه حتى لا يساء فهمه، ولا يؤخذ بضيق أفق يضيِّق على الدعوة دروبها ومسالكها.

وذلك أننا نقول إن قائل ذلك ينبغي أن تتسع نظرته لأدلة المشروعية فلا تقف عند ما ورد فـــيه النص من الكتاب والسنة الصحيحة، بل عليه أن يعلم أن من موارد الفقهاء في الاســـتدلال وإثـــبات الشرعية العمل بالإجماع والقياس وقول الصحابي والمصلحة المرسلة وغير ذلك مما ذكره الأصوليون في قسم الأدلة الإجمالية للأحكام الشرعية.

٢- المصلحة المرسلة:

ففـــي مجال الدعوة إلى الله تعالى يمكن التعويل كثيرًا في هذه المسألة -مسألة الوسائل- على المصلحة المرسلة وهي واحد من أهم الأدلة الإجمالية المأخوذ بها في استنباط كثير من الأحكـــام الشرعية التي لا يوجد فيها نص مباشر من الكتاب أو السنة مع خلوها كذلك

من المعارض بمعنى أنه لا يوجد في الشرع ما ينص على شرعيتها، ولا ما ينص على تحريمها، مع كونها وسيلة لمنفعة شرعية أو مصلحة دنيوية معقولة المعنى[1].

ولم يقتصر عمل الصحابة والتابعين والفقهاء بعدهم في الاستدلال بالمصلحة المرسلة على المنافع والمصالح الدنيوية فقط، بل اتسع ذلك للعمل بها في المصالح الدينية والدعوية وما هي من قبيل التعبد أو ما توصف بأنها عبادات محضة، وذلك كما حدث في مسألة جمع القرآن في مصحف واحد، وذلك لأن حاصل المصلحة المرسلة كما بين الشاطبي أنها ترجع إلى حفظ أمر ضروري ورفع حرج لازم في الدين[2].

ومن ثم ينبغي التحقق في الوسيلة الدعوية من أنها تنطبق عليها الشروط والضوابط التي اشترطها الأصوليون للمصلحة المرسلة.

٣- أن ينتفي عنها وصف البدعة.

ونحتاج في هذا المقام أن نبين أولاً حدّ البدعة:

"أما حد البدعة فمعروف مشهور، يقول الشاطبي -رحمه الله: (وأصل مادة "بدع" للاختراع على غير مثال سابق، ومنه قول الله تعالى: ﴿**بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[3] أي مخترعهما من غير مثال سابق متقدم، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ**﴾[4] أي ما كنت أول من جاء بالرسالة من الله إلى العباد بل تقدمني كثير من الرسل، ويقال: ابتدع فلان بدعة يعني ابتدأ طريقة لم يسبقه إليها سابق. وهذا أمر بديع، يقال في الشيء المستحسن الذي لا مثال له في الحسن، فكأنه لم يتقدمه ما هو مثله ولا ما يشبهه.

ومن هذا المعنى سميت البدعة بدعة، فاستخراجها للسلوك عليها هو الابتداع، وهيئتها

---

(١) راجع في تعريف المصلحة المرسلة وبيان حدها مفصلا: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي: الاعتصام- ضبطه وصححه: أحمد عبدالشافي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الثانية- ١٤١١هـ-١٩٩١م، (٢/٣٥١) وما بعدها.

(٢) انظر السابق.

(٣) البقرة:١١٧.

(٤) الأحقاف:٩.

هـــي البدعة، وقد يسمي العلم المعمول على ذلك الوجه بدعة: فمن هذا المعنى سمي العمل الذي لا دليل عليه في الشرع بدعة، وهو إطلاق أخص منه في اللغة)[1].

ويقـــول ابن تيمية –رحمه الله- في تعريفها بعبارة موجزة: البدعة هي الدين الذي لم يأمـــر الله به رسوله، فمن دان دينًا لم يأمر الله ورسوله به فهو مبتدع بذلك، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ**﴾[2].

ويقـــول الـــشاطبي: في شـــرح الحد: (وقوله في الحد: "تضاهي الشرعية" يعني أنها تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون في الحقيقة كذلك، بل هي مضادة لها من أوجه متعددة:

ويقـــول الـــشاطبي: في شـــرح الحد: "وقوله في الحد: "تضاهي الشرعية" يعني أنها تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون في الحقيقة كذلك، بل هي مضادة لها من أوجه متعددة:

مـــنها: وضـــع الحدود كالناذر للصيام قائمًا لا يقعد، ضاحيًا لا يستظل، والاختصاص في الانقطاع للعبادة، والاقتصار من المأكل والملبس على صنف دون صنف من غير علة.

ومـــنها: التزام الكيفيات والهيئات المعينة، كالذكر بهيئة الاجتماع على صوت واحد، واتخاذ يوم ولادة النبي ﷺ عيدًا، وما أشبه ذلك.

ومـــنها: التزام العبادات المعينة في أوقات معينة لم يوجد لها ذلك التعيين في الشريعة، كالتزام صيام يوم النصف من شعبان وقيام ليلته.

وثم أوجه تضاهي بها البدعة الأمور المشروعة، فلو كانت لا تضاهي الأمور المشروعة لم تكن بدعة، لأنها تصير من باب الأفعال العادية.

وأيـــضًا فإن صاحب البدعة إنما يخترعها ليضاهي بها السنة حتى يكون ملبسًا بها على الغـــير، أو تكون هي مما تلتبس عليه بالسنة، إذ الإنسان لا يقصد الاستتباع بأمر لا يشابه المشروع، لأنه إذ ذاك لا يستجلب به في ذلك الابتداع نفعًا ولا يدفع به ضررًا، ولا يجيبه غيره إليه"[3].

---

(١) السابق- (١/٢٧).

(٢) أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن تيمية: الاستقامة- تحقيق: د.محمد رشاد سالم- مكتبة السنة- القاهرة- الطبعة الثانية- ١٤٠٩هـــ- (١/٥).

(٣) الاعتصام- (١/٢٩-٣٠).

ويقول: "وقوله في الحد: "طريقة مخترعة تضاهي الشرعية" يشمل البدعة التَّركة، كما يشمل غيرها، لأن الطريقة الشرعية أيضًا تنقسم إلى ترك وغيره.. وكما يشمل الحد الترك يشمل أيضًا ضد ذلك. وهو ثلاثة أقسام:

قسم الاعتقاد، وقسم القول، وقسم الفعل؛ فالجميع أربعة أقسام.و بالجملة؛ فكل ما يتعلق به الخطاب الشرعي يتعلق به الابتداع"[1].

وقد بين الشاطبي أن أصل الابتداع إنما يرجع إلى الرأي المذموم "وهو المبني على غير أساس، والمستند إلى غير أصل من كتاب ولا سنة، لكنه وجه تشريعي فصار نوعًا من الابتداع، بل هو الجنس فيها، فإن جميع البدع إنما هي رأي على غير أصل، ولذلك وصفت بوصف الضلال. ففي الصحيح عن عبدالله بن عمرو بن العاص، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله لا ينتزع العلم من الناس بعد إذ أعطاهموه انتزاعًا، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يُستفتون فيُفتون برأيهم، فيَضلون ويُضلون".. وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: (من أحدث رأيًا ليس في كتاب الله، ولم تمض به سنة من رسول الله ﷺ، لم يدر ما هو عليه إذا لقي الله ﷻ"..

إلى أن قال: (وقد اختلف العلماء في الرأي المقصود بهذه الأخبار والآثار. فقد قالت طائفة: المراد به رأي أهل البدع المخالفين للسنن، لكن في الاعتقاد كمذهب جهم وسائر مذاهب أهل الكلام لأنهم استعملوا آراءهم في رد الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ، بل وفي رد ظواهر القرآن لغير سبب يوجب الرد ويقتضي التأويل كما قالوا بنفي الرؤية نفيًا للظاهر بالمحتملات، ونفي عذاب القبر، ونفي الميزان والصراط، وكذلك ردوا أحاديث الشفاعة والحوض -إلى أشياء يطول ذكرها- وهي مذكورة في كتب الكلام.

وقالت طائفة: إنما الرأي المذموم المعيب الرأي المبتدع وما كان مثله من ضروب البدع، فإن حقائق جميع البدع رجوع إلى الرأي، وخروج عن الشرع وهذا هو القول الأظهر، إذ الأدلة المتقدمة لا تقتضي بالقصد الأول من البدع نوعًا دون نوع بل ظاهرها تقتضي العموم في كل بدعة حدثت أو تحدث إلى يوم القيامة، كانت من

---

(١) السابق (١/٣٤).

الأصول أو الفروع..

"وقالت طائفة وهم فيما زعم "ابن عبدالبر" جمهور أهل العلم: الرأي المذكور في هذه الآثار هو القول في أحكام شرائع الدين بالاستحسان والظنون، والاشتغال بحفظ المعضلات والأغلوطات، ورد الفروع والنوازع بعضها إلى بعض قياسًا، دون ردها إلى أصولها والنظر في عللها واعتبارها..... وهذا القول غير مخالف لما قبله، لأن من قال به قد منع من الرأي وإن كان غير مذموم، لأن الإكثار منه ذريعة إلى الرأي المذموم، وهو ترك النظر في السنن اقتصارًا على الرأي، وإذا كان كذلك اجتمع مع ما قبله، فإن من عادة الشرع أنه إذا نهى عن شيء وشدد فيه منع ما حواليه.... وما تقدم من الأدلة يبين لك عظم المفسدة من القول بالقياس وإن كان جاريًا على الطريقة، فامتنع جماعة من الفتيا به قبل نزول المسألة)[1].

ثم ذكر بعض الآثار في التشديد في النهي عن الرأي منها ما رواه عن مالك قال: (وقال مالك بن أنس: قبض رسول الله ﷺ وقد تم الأمر واستكمل، فإنما ينبغي أن نتبع آثار رسول الله ﷺ ولا نتبع الرأي، فإنه متى اتبع الرأي جاء رجل آخر أقوى في الرأي منك، فاتبعته، فأنت كلما جاء رجل عليك اتبعته، أرى هذا لا يتم.

ثم ثبت أنه كان يقول برأيه، ولكن كثيرًا يقول بعد أن يجتهد رأيه في النازلة: ﴿**إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ**﴾[2] ولأجل الخوف على من كان يتعمق فيه لم يزل يذمه ويذم من تعمق فيه: فقد كان ينعى على أهل العراق لكثرة تصرفهم به في الأحكام، فحكى عنه في ذلك أشياء من أخفها قوله: الاستحسان تسعة أعشار العلم ولا يكاد المغرق في القياس إلا يفارق السنة.

والآثار المتقدمة ليست عند مالك مخصوصة بالرأي في الاعتقاد، فهذه كلها تشديدات في الرأي وإن كان جاريًا على الأصول، حذرًا من الوقوع في الرأي غير الجاري على الأصل.

---

(١) السابق- (١/٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧).

(٢) الجاثية: ٣٢.

ولابن عبدالبر -هنا- كلام كثير كرهنا الإتيان به.

والحاصل من جميع ما تقدم أن الرأي المذموم ما بني الجهل واتباع الهوى من غير أن يرجع إليه، وما كان منه ذريعة إليه وإن كان في أصله محمودًا، وذلك راجع إلى أصل شرعي؛ فالأول داخل تحت حد البدعة وتتنزل عليه أدلة الذم، والثاني خارج عنه ولا يكون بدعة أبدًا"[1].

فتبين لنا بذلك الفرق بين الرأي الذي هو بدعة وهو ما بني على الجهل واتباع الهوى من غير أصل يرجع إليه، أما ما رجع إلى أصل شرعي فلا يدخل تحت البدعة، ولا يلحقه الذم بحال أصاب صاحبه أم أخطأ، بل إذا أصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر، مادام كان صاحبه متحريًا للسنة، غير مقصر في طلب الحق، آخذًا بوسائله سالكًا سبله ومسالكه المشروعة.

يقول شيخ الإسلام: (فالمجتهد المستدل من إمام وحاكم وعالم وناظر ومُفت وغير ذلك إذا اجتهد واستدل فاتقى الله ما استطاع كان هذا هو الذي كلفه الله إياه. وهو مطيع لله مستحق للثواب إذا اتقاه ما استطاع. ولا يعاقبه الله البتة خلافًا للجهمية المجبرة، وهو مصيب بمعنى أنه مطيع لله لكن قد يعلم الحق في نفس الأمر وقد لا يعلمه، خلافًا للقدرية والمعتزلة)[2].

ويقول أيضًا: (والخطأ المغفور في الاجتهاد هو في نوعي المسائل الخبرية والعملية كما قد بسط في غير موضع، كمن اعتقدت ثبوت شيء لدلالة آية أو حديث، وكان لذلك ما يعرضه ويبين المراد و لم يعرفه)[3].

وفي كتاب الاستقامة لابن تيمية:

فصل: فيما اختلف فيه المؤمنون من الأقوال والأفعال في الأصول والفروع، قال فيه: (ومن هذا الباب ما هو من باب التأويل والاجتهاد والذي يكون الإنسان مستفرغًا فيه

---

(١) السابق- (١/٧٨، ٧٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/٢١٦، ٢١٧).

(٣) السابق (٢٠/٣٣-٣٦).

وسعه علمًا وعلملاً. ثم الإنسان قد يبلغ ذلك ولا يعرف الحق في المسائل الخبرية الاعتقادية وفي المسائل العملية الاقتصادية، والله سبحانه قد تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...﴾[1]...

وإذا كان كذلك فينبغي أن يُعلم أن للقلوب قدرة في باب العلم والاعتقاد العلمي، وفي باب الإرادة والقصد، وفي الحركة البدنية أيضًا.

فالخطأ والنسيان هو من باب العلم يكون: إما مع تعذر العلم عليه، أو تعسره عليه. والله قد قال: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[2]، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[3].

وإذا كان كذلك فما عجز الإنسان عن علمه واعتقاده حتى يعتقد ويقول ضده خطأ أو نسيانًا، فذلك مغفور له، كما قال النبي ﷺ : "إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر"، وهذا يكون فيما هو من باب القياس والنظر بعقله ورأيه، ويكون فيما هو من باب النقل والخبر الذي يناله بسمعه وفهمه وعقله، ويكون فيما هو من باب الإحساس والبصر الذي يجده ويناله بنفسه[4].

(فهذه المدارك الثلاثة قد يحصل للشخص[5]علم يقطع به، ويكون ضروريًا في حقه، مثل ما يجده في نفسه من العلوم الضرورية، ومثل ما سمعه من النبي ﷺ، أو من المخبرين له الصادقين خبرًا يفيده العلم، كالخبر المتواتر الذي يفيده العلم تارة بكثرة عدد المخبرين، وتارة فصفاتهم، وتارة بهما، وغير ذلك مما يفيد العلم.

وقد يكون مما علمه[6] بآثاره الدالة عليه، أو بحكم نظره المساوي له من كل وجه، أو

---

(١) البقرة:٢٨٦.

(٢) الحج:٧٨.

(٣) البقرة:١٨٥.

(٤) الاستقامة (١/٢٦، ٢٨، ٢٩).

(٥) في الأصل: الشخص، وهو تحريف. بها

(٦) في الأصل: عمله، وهو تحريف.

الذي يدل على الآخر بطريق الأولى والتنبيه ونحو ذلك. ومع هذا فتكون هذه العلوم عند غيره غير متيقنة مع اجتهاده لدقة العلوم أو خفائها، أو لوجود ما يعتقد المعتقد أنه يعارض ولا يكـــون معارضًا في الحقيقة، فيشتبه بالمعارض، لاشتباه المعارض، أو لاشتباه المعاني، أو لاشتراك الألفاظ.

فهـــذا مـــن أعظـــم أســـباب اخـــتلاف بني آدم من المؤمنين وغيرهم، ولهذا نجد في المختلفـــين كل طائفة تدّعي العلم الضروري. فما يقوله إما من جهة القيـــاس والنظـــر، وإما من جهة السماع والخبر، وإما من جهة الإحساس والبصـــر. ولا تكـــون واحـــدة مـــن الطائفـــتين كاذبـــة بل صادقة، لكن يكون قد أدخل مع الحق ما ليس منه في النفي والإثبات لاشتباه المعاني واشتراك الألفاظ، فيكون حينئذ ما ينفيه هذا يثبته الآخر. ولو زال الاشتباه والاشتراك زال الخلاف التضادي)[1]. فمن مجموع ما نقلنا آنفًا عن الشاطبي وابن تيمـــية –رحمهمـــا الله– يتبين لنا الفرق الكبير بين البدعة والاجتهاد الخطأ، وبين المبتدع والمجتهد المخطئ.

فالمبتدع كما يقول الشاطبي (معاند للشرع ومشاق له)[2]. وأنه: (قد نزل نفسه منزلة المضاهي للشارع.. حيث شرَّع مع الشارع، وفتح للاختلاف بابًا، ورد قصد الشارع في الانفراد بالتشريع...)[3].

أما المجتهد المخطئ فهو كما بين ابن تيمية أنه من اجتهد واستدل وأفرغ وسعه فاتقى الله ما استطاع، إلا أنه قد جانبه الصواب لخطأ أو نسيان، كمن اعتقد ثبوت شيء لدلالة آية أو حديث وكان لذلك ما يعارضه ويبين المراد ولم يعرفه، أو يكون مما خفي عليه بعد البحث والطلب.

فـــيقول ابن تيمية: (ولا ريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للامة وإن كان ذلك في المـــسائل العلمية، ولولا ذلك لهلك أكثر فضلاء الأمة. وإذا كان الله يغفر لمن جهل تحريم

---

(١) الإستقامة- (١/٢٩-٣٠).

(٢) الاعتصام -(١/٣٧).

(٣) السابق- (١/٣٨).

الخمـــر لكونه نشأ بأرض جهل مع كونه لم يطلب العلم، فالفاضل المجتهد في طلب العلم بحـــسب مـــا أدركه في زمانه ومكانه إذا كان مقصوده متابعة الرسول بحسب إمكانه هو أحق بأن يتقبل الله حسناته، ويثيبه على اجتهاداته، ولا يؤاخذه بما أخطأ، تحقيقًا لقوله: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[1])[2].

وهـــذا العـــذر ليس مقصورًا على دقائق العلم وحدها إذ يقول ابن تيمية: (فلما طال الـــزمان على كثير من الناس خفي ما كان ظاهرًا لهم، ودق على كثير من الناس ما كان جلـــيًا لهـــم، فكثر في المتأخرين مخالفة الكتاب والسنة ما لم يكن مثل هذا في السلف وإن كانوا مع هذا مجتهدين معذورين يغفر لهم خطاياهم، ويثيبهم على اجتهادهم)[3].

ويقـــول أيـــضًا: (إن ما ثبت قبحه من البدع وغير البدع من المنهي عنه في الكتاب والسنة، أو المخالف للكتاب والسنة إذا صدر عن شخص من الأشخاص، فقد يكون على وجه يعذر فيه، إما لاجتهاد أو تقليد يُعذر فيه، وإما لعدم قدرته)[4].

وفي كلامه عن بدع المواسم من تخصيص وقت بصوم أو صلاة، قال: (لا ريب أن من فعلها متأولاً مجتهدًا أو مقلدًا كان له أجر على حسن قصده وعلى علمه، من حيث ما فيه مـــن المـــشروع، وكان ما فيه من المبتدع مغفورًا له، وإذا كان في اجتهاده أو تقليده من المعـــذورين، وكـــذلك ما ذكر فيها من الفوائد كلها، إنما حصلت لما اشتملت عليه من المـــشروع في جنسه، كالصوم والذكر، والقراءة، والركوع، والسجود، وحسن القصد في عـــبادة الله وطاعـــته ودعائه، وما اشتملت عليه من المكروه،انتفى بموجبه بعفو الله عنه، لاجتهاد صاحبها أو تقليده)[5].

إلا أن ابن تيمية مع ذلك وإن بين أن المجتهد المخطئ معذور مأجور –إلا أنه نبه على

---

(١) البقرة:٢٨٦.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/١٦٥-١٦٦).

(٣) السابق- (١٣/٦٥).

(٤) السابق- (١٠/٣٧٠، ٣٧٢).

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم- (٢/٦٠٩).

أنه لا يجوز اتباعه فيما أخطأ فيه لمن علم الصواب في خلافه، وإن كان القائل أو الفاعل مأجورًا أو معذورًا[1]؛ لأن كونه معذورًا أو مأجورًا لا يخرجه عن كونه عاملاً بالبدعة، فهذا العامل بالبدعة على سبيل الاجتهاد الخطأ يكون حكمه حكم المجتهد المخطئ، من حيث كونه معذورًا مأجورًا، وكلاهما كذلك لا يجوز اتباعه لمن عرف أن الحق بخلاف ذلك.

فالخطأ في الاجتهاد وارد على الجميع ولم يسلم منه الصحابة، ولا الصديقون ولا الشهداء والصالحون فيقول ابن تيمية: (فأما الصديقون، والشهداء والصالحون فليسوا بمعصومين. وهذا في الذنوب المحققة. وأمَّا ما اجتهدوا فيه: فتارة يصيبون، وتارة يخطئون. فإذا اجتهدوا فأصابوا لهم أجران، وإذا اجتهدوا وأخطأوا فلهم أجر على اجتهادهم، وخطؤهم مغفور لهم)[2].

ويقول في موضع آخر: (فالغرض أن يعرف الدليل الصحيح، وإن كان التارك له: قد يكون معذورًا لاجتهاده، بل قد يكون صديقًا عظيمًا، فليس من شرط الصدِّيق أن يكون قوله كله صحيحًا، وعمله كله سنة.

فكم ممن عدل عن ذلك يخرج عن النور بالكلية، إذا خرج غيره عن ذلك، لما رآه في طريق الناس من الظلمة)[3].

والحقيقة أن ملاك الأمر في هذا الباب، وهو العمدة في التفريق بين البدعة والاجتهاد الخطأ، وبين المبتدع والمجتهد المخطئ أو العامل بالبدعة ممن قد يشارك أهل البدع في بعض بدعهم لخطأ في النظر والاستدلال فالعمدة في ذلك، هو أن ينظر إلى منهج الاستدلال والنظر الذي يسلكه القائل بهذه البدعة والمتلبس بها، فإن كان منهجه في النظر والاستدلال هو منهج أهل البدع والضلال والتفرق، فوصف المبتدع حري به، ووجوب اجتنابه والافتراق عنه خليق بنا، وإن كان منهجه في النظر والاستدلال هو منهج أهل

---

(١) السابق- (٢/٥٨).

(٢) السابق- (٢/١٨٢).

(٣) مجموع الفتاوى- (١٠/٣٦٤، ٣٦٥).

السنة والجماعة، خاصة وإن كان موافقًا لهم في الغالب ملازمًا لجماعتهم مثنيًا على طريقتهم، فليعلم أنه ما قصد إلى البدعة قصدًا، بل إنما وقع فيها خطأ، فمثل هذا حقه العفو إذ إن العصمة منتفية عن العباد إلا من عصم الله من أنبيائه ورسله.

والدليل على ذلك أن أهل السنة ما فتئوا ينكر جمهورهم على بعض المنتسبين إليهم من جلّة العلماء بعض زلات لهم دون أن يحكموا عليهم بالخروج عن دائرة أهل السنة والجماعة، ودون أن يخرجوهم إلى دائرة الفرق وأهل الضلالة نظرًا لما عرف عنهم من التزامهم المجمل بالكتاب والسنة وهدي السلف الصالح ولزوم طريقتهم ومنهجهم في النظر والاستدلال.

وذلك كما أنكروا على أبي حنيفة، وكثير من أتبعه من المتقدمين،وذلك كما أنكروا على كل من الإمام النووي، وابن حجر وخلق كثير ممن بعدهم من المتأخرين مسائل لا تحصى كثرة مما عُدَّت من الأصول كمسائل في الإيمان والصفات وغير ذلك ولم يخرجهم ذلك من دائرة أهل السنة والجماعة، ولا حكموا عليهم بذلك بوصف الفرق الضالة الخارجة عن الصراط. وتقدم عن الشاطبي –رحمه الله– قوله: (وأما الجزئي فبخلاف ذلك، بل يُعد وقوع ذلك من المبتدع له كالزلة والفلتة) اهـ.

"ومن المعلوم أن من أهم أمارات البدعة عدمُ ورود الدليل الشرعي على اعتبار أصلها أو وصفها فيظن المبتدع أنه بنيته الحسنة في اختراعها قد استزاد بابا للخير وانفرد بطريق إلى الله قد هجرها السالكون، فهذه هي البدعة الأصلية، التي لم يعتبرها الشرع بأي وجه من الوجوه، فإذا ما اعتبر الشرع أصلها دون وصفها (كالذكر الجماعي دُبُرَ كل صلاة فَرْض) فهذه البدعة الإضافية وهي التي شهد الدليل على جواز حقيقتها كمطلق الذكر ولكنه لم يشهد على اعتبار وصفها ككون هذا الذكر جماعيا ودبر كل صلاة فرض، فجمهور أهل العلم على أن مَذَمَّة الابتداع تلحقها أيضا، ويُفهم من نقل الشاطبي –رحمه الله– لآثار السلف في هذا الباب عدم اختلافهم في ذم البدعة الإضافية أيضًا، ولولا الاحتياط في نقل الاجماع لاعتبرته إجماعًا عن السلف.

وعُلِمَ بالاستقراء أن الأوصاف التي بابتداعها تكون البدعة إضافية هي الأوصاف التي

توجد بها العبادة وهي: ١-المقدار، ٢-الكيف، ٣-الزمان، ٤-المكان، ٥-السبب (الوسيلة)، ٦-الغاية (أي النية)، ٧-الجنس (الماهية).

والمعنى أن هذه الأوصاف متى لم يرد باعتبارها دليل شرعي تكون العبادة بذلك بدعة إضافية، وما يعنينا في هذا المقام هو الوسيلة، إذ تقرر في علم أصول الفقه أن الوسائل لها أحكام المقاصد، والمراد دخول الوسائل في إطار شرعية المقاصد، وفرعوا على هذا الأصل أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وأن ما لا يتم الحرام إلا به فهو حرام"[1].

وبهذا نستطيع أن نتبين حدّ البدعة في الأقوال والأفعال وكذلك في الوسائل الدعوية التي لها حكم المقاصد فهي لابد أن تخلو من وصف البدعة وشروطها.

أما ما كان واقعًا على سبيل الاجتهاد الخطأ فلا يوصف بالبدعة ولا يوصف صاحبه بالمبتدع بل هو مخطئ مأجور إن شاء الله، ولكن والحال هذه لا يجوز اتباع الخطأ وتقليده لمن تبين له الصواب بالدليل الشرعي الصحيح، وإن كان لا يجوز له رمي المجتهد المخطئ المخالف له بالبدعة والضلالة، إن كان الأمر مما يسوغ الاختلاف فيه، وأحسب أن أمر الوسائل من هذا الباب، فإن هذه الوسائل إما أن يأتي الدليل الصحيح بمشروعيتها فهذا لا خلاف فيه. وإما أن يأتي الدليل على حرمتها والنهي عنه فهذه لا خلاف وجوب اجتنابها كذلك.

وإنما يقع الاجتهاد والاختلاف والخطأ المغفور من المجتهد بشروطه في النوع الثالث من الوسائل وهي ما لم يأت في الشرع ما يدل على إلغائه أو اعتباره، فمن ثم يختلف الناس فيها فمنهم من يجعلها من قبيل المصالح المرسلة، ومنهم من يحكم عليها بالابتداع، وقد سبق بيان الأصل الذي ترجع إليه المصلحة المرسلة، والأصل الذي ترجع إليه البدعة، والفارق بينها وبين المصلحة المرسلة وبين الاجتهاد الخطأ، فمن ثم يمكن التفريق بين ما يلتبس على الداعي من الوسائل من جهة الحل أو الحرمة.

---

(١) ٣٠ طريقة لخدمة الدين- (٥٣-٥٤).

ومن ثم نحتاج "إلى تقرير أمرين: الأول أن هناك فرقًا بين البدعة وبين المصلحة المرسلة والاستحسان عند من يقول بهما، يقول الشاطبي -رحمه الله: فإن كثيرًا من الناس عدُّوا أكثر المصالح المرسلة بدعا ونسبوها إلى الصحابة والتابعين، وجعلوها حجة فيما ذهبوا إليه من اختراع العبادات.. ثم أخذ الشاطبي -رحمه الله- يبين أصل المصلحة المرسلة وأن الاعتداد بها يرجع إلى اعتبار المناسب الذي لم يشهد له أصل معين ثم ساق عشرة أمثلة جرت في عهد الصحابة خرجت على جهة المصلحة المرسلة و لم تعتبر من البدع المحدثة ككتابة المصحف وتضمين الصناع ونحو ذلك، وبين أن ضابط المصلحة المرسلة أنها لا تنافي أصلا من أصوله ولا دليلا من دلائله وأن عامة النظر فيها (المصلحة المرسلة) إنما هو فيما عقل معناه وجرى على ذوق المناسبات المعقولة التي إذا عُرِضَتْ على العقول تَلَقَّتْها بالقبول فلا مَدْخَلَ لها في التَّعَبُّدات ولا ما جرى مُجْرَاها من الأمور الشرعية؛ لأن عامة التعبدات لا يُعْقَل لها معنى على التفصيل كالوضوء، والصلاة والصيام.

الثاني: أنَّ حاصل المصلحة المرسلة -كما قال الشاطبي- يرجع إلى حفظ أمر ضروري ورفع حرج لازم في الدين، وأيضًا مرجعها إلى حفظ الضروري من باب ما لم يتم الواجب إلا به.. فهي إذن من الوسائل لا من المقاصد.. ثم قال: وأما كونها في الضروري من قبي الوسائل وما لا يتم الواجب إلا به"[1].

"والذي لا شك فيه أن رسول الله ﷺ لم يَنُص على بدعية كل البدع بأن عَيَّنَها أو بينها، لاستحالة ذلك مع تمادي الزمان وتولد المحدثات الكثيرة، فكان تنبيه ﷺ على كليات القضية وأصول الابتداع ليقيش السُّنِّيُّ بعد ذلك ويتحرى الاتباع كيفما تيسر.

والذي لاشك فيه أيضًا أن جانب الابتداع مبني على الاحتياط لا التساهل، فإذا تفاوت القول في قضية بين تبديعها وعدم تبديعها فالأحوط في جَنْبِ المتحرِّي للسنة أن يزهد فيها وأن يلتمس البراءة من الابْتداع ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

---

(١) السابق- (٥٤-٥٥).

لكـــن سمات الفعل المبدع وملامحه قد تختلط بملامح وسمات الفعل المشروع، ويتجاور ذلك مع عدم وجود دليل خاص على التبديع، بل قد يتضافر مع ذلك اجتماع جمهرة من أهـــل العلـــم على اعتبار مشروعية ذلك الفعل في ظل تبديع الآخرين، فوجب عندئذ أن يأخذ الدعاة حِذرَهم ويسلكوا سبيل الأناة في تناول هذا الفعل، وألا تأخذهم العزة بالإثم في سماع الهدى وتفيؤ ظل الشريعة.

وفي المقابل لابد أن يتهادن الدعاة فيما اختلفوا فيه من الحق، وأن يتركوا التهاجر عند كـــل نازلة تنزل بالمسلمين، وألا يفزعوا إلى التبديع سلاحا يشهرونه عندما يعييهم الدليل، فـــإن شـــأن العلماء التريث فيما لم يستبن لهم حتى يستجلوا غامضة فيكون الإنكار على بصيرة من الهدى والبينات"[1].

ومن خلال ما سبق نستطيع أن نلخص الفارق بين البدعة والمصلحة المرسلة بالآتي:

١-أن المصلحة المرسلة تندرج تحت أصل شرعي وهو حفظ الضروري ورفع الحرج، ومـــا لا يتم الواجب إلا به ونحو ذلك، أما البدعة فهي لا تندرج تحت أصل شرعي وليس لها في الشرع ما يشهد لها، ومن ثم فما كان من الوسائل من باب حفظ الأمور الضرورية، أو من باب رفع الحرج، أو من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو مشروع وليس من باب البدعة ما لم يثبت في الشرع نص بمنعه.

٢-أن المصلحة المرسلة من باب الوسائل كما رجح الشاطبي[2] ومن ثم فهي لها حكم المقاصـــد، بخـــلاف الـــبدع فهي ليس لها أصل تندرج تحته، ومن ثم لا يجوز التذرع فيها بالمقاصد.

"وبـــذلك نعلـــم أن الوسائل الدعوية يجب أن تخضع لهذا التقدير العلمي، وألا تكون خاضـــعة في منهج الدعاة إلى الهوى أو الطبع أو ما استقر في أعرافهم الدعوية، فلا حاكم بينهم إلا شرع الله تبارك وتعالى.

---

(١) السابق- (٥١-٥٢).

(٢) انظر: الاعتصام- الباب الثامن.

ولكن قد يختلف العلماء في تبديع مسألة، فماذا يكون موقف الداعية من هذه المسألة؟ والجـــواب أنـــه لابد من التفريق بين ما هو بدعة في أصول الدين وفروعه، فالابتداع في أصول الدين دائر بين الفسق والكفر والضلالة المحضة، أما الابتداع في فروع الدين إن كان في أصـــول المسائل -أي المقاصد- كأصول العبادات مثل الصلاة والذكر ونحو ذلك فهي حـــرية بوصـــف الضلال الذي ألصقه الرسول ﷺ بالبدعة. أما إذا كانت فيما دون ذلك فليس الخطب فيها كغيرها.

وقـــد قرر الإمام الشاطبي -رحمه الله- أن أحكام البدع ليست على رتبة واحدة وأن مـــنها الـــبدع المحرمة ومنها البدع المكروهة وأن المحرم منها ينقسم إلى صغير وكبير، وإذا تقـــرر ذلـــك كان تصرف الداعية مع تلك المسألة المختلف فيها بِحَسَب مكانتها وجلالة أمرها.

ثم إن البدعة تنشأ على أربعة أوجه -كما قال الشاطبي:

أحدها: وهو أظهر الأقسام أن يخترعها المبتدع.

والثاني: أن يعمل بها العالم على وجه المخالفة فيفهمها الجاهل مشروعة.

الـــثالث: أن يعمـــل بها الجاهل مع سكوت العالم عن الإنكار وهو قادر عليه، فيفهم الجاهل أنها ليست بمخالفة.

الرابع: من باب الذرائع، وهي أن يكون العمل في أصله معروفًا إلا أنه يتبدل الاعتقاد فـــيه مع طول العهد. ثم يقول الشاطبي -رحمه الله: إلا أن هذه الأقسام ليست على وزن واحد، ولا يقع اسم البدعة عليها بالتواطؤ بل هي في القرب والبعد على تفاوت. فالأول هو الحقيق باسم البدعة فإنها تؤخذ علة بالنص عليها، ويليه القسم الثاني ثم الثالث فالرابع. قال: وأما القسم الثاني والثالث فالمخالفة فيه بالذات والبدعة من خارج، إلا أنها لازمة لها لزوما عاديا، ولزوم الثاني أقوى من لزوم الأول.

وقـــد ظهر لي في بعض المسائل أنها من البدع التي لا يجوز إقرارها، مثل إمساك ورقة فـــيها أسماء أشخاص عند ذبح الأضحية وذكر هذه الأسماء عند الذبح، فلما راجعت فيها الـــشيخ العلامـــة ابن باز -رحمه الله- ردَّ في فتوى مكتوبة لدي أن هذا ليس ببدعة وأنه

يشهد له أصل مثل قوله ﷺ عند ذبح أضحيته: "اللهم هذا عن محمد وآل محمد".

فعلمت حينها أن أمر التبديع ينبغي عدم التسرع فيه والهجوم على أحكامه. وقد استبان لنا مما سبق أن الداعية ينبغي أن يتصف بما يلي:

أولا: الإلمام بالقواعد الأصولية التي تحكم مسائل البدعة والتبديع.

ثانيا: أن يأخذ في الاعتبار تفاوت البدعة في مراتبها.

ثالثا: ألا يتسرع في تبديع مسألة إلا بعد البحث التام لجوانبها ومراجعة أهل العلم بها.

رابعًا: أن يتسم بالحكمة في التعامل مع المخالف (المبتدع).

وقد حَرِصْتُ أن أضع هذه القواعد وأن أُحَرِّرَها مُجافيا التحيزَ لأحد، مفضلا عدم التفصيل وضرب الأمثلة حتى لا يتكئ على هذه التفاصيل متكئ فيحسب نفسه أولى بكلامي من غيره، وكان هدفي (الذي يجب أن يعلم) أن ينضبط الدعاة بالقِسطَاس المستقيم وألا يُشَوِّهوا الدين بالتوسُّع في ابتكار الوسائل الدعوية المبتدعة، وألا يجوروا على بعضهم إذا حصل الخلاف في بعض المسائل والله تبارك وتعالى هو المسئول أن يصلح أحوال المسلمين"[1].

٤- أن تكون محققة للمقصد الدعوي أو معينة على تحقيقه:

فيشترط لمشروعية اتخاذ الوسيلة الدعوية أن تكون محققة للمقصد الدعوي أو معينة على تحقيقه، وذلك بالشروط والضوابط السابقة، وإلا فإن كل وسيلة لا تحقق مقصود الدعوة فاتخاذها محض عبث، ينبغي التنزه عنه توفيرًا للجهود والأوقات والنفقات.

٥-ألا تتعارض مع مقصد من المقاصد الشرعية:

ينبغي ألا تتعارض الوسيلة الدعوية مع مقصد من مقاصد الشرع، فعلى سبيل المثال إذا كان من المقاصد الشرعية ترك المعاصي، وتقوى الله تعالى فيكون كل وسيلة من الوسائل تؤدي إلى عكس هذا المقصود وسيلة ممنوعة ومحرمة.

---

(١) ٣٠طريقة لخدمة الدين- (٥٧-٥٩).

ومـــن الأمثلة على ذلك ما يقام من الحفلات الراقصة الماجنة التي يدعونها –بزعمهم– بـــالحفلات الخيرية، حيث يؤتى فيها براقصة مشهورة، أو مغنية مشهورة أو فرقة راقصة ونحو ذلك من المحرمات بقصد جمع التبرعات الخيرية لصالح المرضى أو للمنكوبين أو لأسر الـــضحايا أو لمساعدة المجاهدين ونحو ذلك فإذا اعتبرنا جمع التبرعات للعمل الخيري عملاً مـــن أجـــل أعمـــال الدعوة إلى الله، فإن اتخاذ هذه الوسائل المحرمة يجعل هذا العمل غير مـــشروع لاشتماله على وسيلة محرمة لا يتحقق إلا من خلالها، فمما هو معلوم وثابت أن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا.

فمن ثم لا يجوز جمع التبرعات لأعمال خيرية دعوية بمثل هذه الوسائل المحرمة.

ومن ثم نستطيع أن نجمل الشروط والضوابط التي تباح بها الوسيلة الدعوية بالآتي:

١-أن تكون الوسيلة مباحة في ذاتها.

٢-أن يتحقق فيها ضابط المصلحة المرسلة.

٣-أن ينتفي عنها وصف البدعة.

٤-أن تكون محققة للمقصد الدعوي، أو معينة على تحقيقه.

٥-ألا تتعارض مع مقصد من المقاصد الشرعية.

المبحث الثاني: الواقع المعاصر وعوامل التطور:

أخـــذ العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه سبات عميق شمل جميع مناحـــي الحيـــاة مـــنذ القـــرن العاشـــر الهجـــري؛ فهو "أول قرون الخمود والتقليد والمحاكاة، وترى هذا الخمـــــود عامًا شاملاً للعلوم الدينية والفنون الأدبية والمعاني الشعرية والإنشاء والتاريـــخ ومناهج التعليم، فلا تجد في كتب التراجم التي ألفت للعصور الأخيرة من تطلق عليه لقب العبقـــري، أو الـــنابغة، أو المحقق على الأقل، أو من جاء في فن من الفنون بشيء طريف مبتكـــر، أو زاد في العلـــم زيـــادة حـــسنة، إذا اســـتثنينا بعض الأفراد في أطراف العالم الإسلامي"[1].

---

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- مطابع علي بن علي- الدوحة- الطبعة العاشرة (١٣٩٤هـ-١٩٧٤م)- (ص١٦٦).

ولرصد التغيرات التي طرأت على العالم الإسلامي يتحتم علينا أن نضع العالم الإسلامي تحت المجهر لنستكشف الأدواء التي تفشت فيه، وجعلته كالرجل المريض العاجز، حتى تتجلى لنا العوامل المؤثرة في هذا التغير.

وباستقراء تاريخ العالم -بما فيه العالم الإسلامي- نجد هناك تحولات شديدة أثرت في مجريات الأحداث والأمور، ولم يكن العالم الإسلامي بمنأى عن تلك التأثيرات.

أ-المؤثرات الخارجية:

حدث تبادل لمواقع القيادة بين العالم الإسلامي والغرب، لقد كان العالم الإسلامي هو الهادي للبشرية في حيرتها الروحية، وكان آخذًا بزمام العقل، وإمامًا للتفكير العلمي السليم، وهذا يعني أن حضارته كانت حضارة متوازنة شاملة، معنية بالروح والمادة معًا، ولا تضخم جانبًا وتهمل الآخر. ولكن حدث قصور في فهم المسلمين ونظرتهم للحياة أدى بهم إلى اعتزال قيادة البشرية على ما سنبينه. وفي هذه الأثناء هب الغرب من رقدته التي تطاولت على مدى قرون، نافضًا عنه غبار الجهل والتخلف حتى تحولت عجلة الحضارة من الشرق مولية وجهها نحو الغرب، وترك العالم الإسلامي عرشه الذي كان متوجًا عليه ليحل محله الغرب.

لقد أصاب الغرب أحداث غيرت مجرى التاريخ عندهم؛ حيث كانت هذه الأحداث كالبراكين الثائرة، والطوفان الهادر الذي يغير معالم كل شيء أمامه... لقد زُلزل الغرب من جميع أركانه.

لقد كان التغير عنيفًا ولم يكن متدرجًا، وقد شمل كل المجالات الدينية والعلمية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

لقد كان ثورة شاملة حاولت تحطيم كل القواعد القديمة وإحلال قواعد جديدة محلها.

١-التغير الديني (الثورة على الكنيسة):

لم يكن الدين في الغرب دينًا ربانيًا وقائدًا روحيا يربي الشعوب على الإيمان، وينير لها طريقها ليوصلها للسعادة الأبدية في جناب رب العالمين، ولكنه دين محرف "من صنع

الكنيسة الأوربية لا صلة لها بالأصل المترل، الذي أرسل المسيح ليبلغه لبني إسرائيل: ﴿وَرَسُولا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[1]"[2].

لم يكن دينا بقدر ما كان سلطة كنسية يعلوها البابا، جعلت لنفسها حق تفسير الدين ونصوصه، وأنه لا أحد أقدر منهم على فهم النصوص، بل إن في الدين أسرارًا لا يفهمها سواهم، وكل من يخرج عن هذا التفسير يكون قد خرج على إرادة الرب.

وقد تدخلت الكنيسة في كل شيء وأقحمت نفسها فيما لا قبل لها به تحت اسم الدين، فهي إن أنعمت على أحد فباسم الدين، وإن حرمت أحدًا فباسم الدين.

فلقد نافست الكنيسة متمثلة في سلطة البابوات سلطة الأباطرة، ووصل بها الأمر أن أعلنت حرمان بعض الأباطرة من رحمة الكنيسة، وهذا يعني سحب السلطة الزمنية من تحت أقدامهم[3].

"ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه في كتبهم المقدسة، بل قدسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر بين الناس وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية، وصبغوها صبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها ونبذ كل ما يعارضها، وألفوا في ذلك كتبًا وتآليف، وسموا هذه الجغرافية —التي ما أنزل الله بها من سلطان: الجغرافية المسيحية (christian topography) وعضوا عليها بالنواجذ وكفروا كل من لم يدن بها.... ويقدر أن من عاقبت هذه المحاكم —يقصد محاكم التفتيش- يبلغ عددهم ثلاثمائة ألف، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفًا أحياء، كان منهم

---

(١) آل عمران:٤٩.

(٢) محمد قطب:مذاهب فكرية معاصرة- دار الشروق- القاهرة- الطبعة الثامنة- (١٤١٤هـ-١٩٩٣م)- (ص٩).

(٣) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- (ص١٨٩-١٩٠)- مذاهب فكرية معاصرة- (ص٤٣-٤٧)- سفر بن عبدالرحمن الحوالي: العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة- مطابع أم القرى- الطبعة الأولى- (١٤٠٢هـ-١٩٨٢م)- (ص١٢٨) وما بعدها.

العـــالم الطبيعـــي المعروف برونو، نقمت منه الكنيسة آراء من أشدها قوله بتعدد العوالم، وحكمـــت عليه بالقتل، واقترحت بأن لا تراق قطرة من دمه، وكان ذلك يعني أن يحرق حيا، وكذلك كان.

وهكذا عوقب العالم الطبيعي الشهير غليلو (Galilio) بالقتل؛ لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس"[1].

كـــل ما سبق أدى إلى نشوء صدام عنيف بين الكنيسة والعلم انتهى في نهاية المطاف بالخـــروج على الكنيسة، واعتبارها سبب التخلف والجمود الحاصلين في المجتمع الأوربي، وأنها راعية الخرافة والجهل.

وكانت الثورة على الكنيسة -رغم طغيانها على جميع المستويات- محصورة في طبقتي الأباطـــرة والعلمـــاء، وبعد الثورة الفرنسية ١٧٨٩م تجاوزت الثورة على الكنيسة هاتين الطبقتين إلى القاعدة الشعبية[2].

لقد قابلت تلك الثورة تطرف الكنيسة ومغالاتها في التمسك -فيما تدعي- بالنصوص المقدســـة، بتطـــرف في المقابـــل برفض الدين وطرحه كلية، وليت الثورة اقتصرت على الكنيـــسة وتصوراتها وحاولت العودة إلى الدين الصحيح، ولكنها تطرفت وحاربت الدين في حد ذاته، فلم "يكن عند هؤلاء الثائرين من الصبر والمثابرة على الدراسة والتفكير، ومن الوداعة والهدوء، ومن العقل والاجتهاد ما يميزون به بين الدين ورجاله المحتكرين لزعامته، ويفـــرقون بين ما يرجع إلى الدين عن عهدة ومسئولية، وما يرجع إلى رجال الكنيسة من جمـــود وجهـــل واستبداد وسوء تمثيل، فلا ينبذوا الدين نبذ النواة، ولكن الحفيظة وشنآن رجال الدين والاستعجال لم يسمح بالنظر في أمر الدين والتريث في شأنه كغالب الثوار في أكثر الأعصار والأمصار"[3].

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- (ص١٩١-١٩٢) باختصار.

(٢) انظر: العلمانية- (ص١٦٤).

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- (ص١٩٣) باختصار.

ولـــذلك ظهـــر الإلحاد –وذلك بعبادة المادة وطرح كل ما هو غيبي –على مستوى خطير؛ حيث كان الإلحاد في العصور السابقة متمثلا في أفراد، ولكن أن يأتي عصر كامل يـــسمى عصر الإلحاد؛ حيث عم الإلحاد جميع المستويات فهذا ما لم يحدث إلا في أوربا في العصر الحديث، ومنها انتشر الإلحاد إلى جميع أنحاء المعمورة.

إذن طـــرحت أوربـــا الدين، ورغم ذلك تزعم أنها راعية المسيحية في العالم وترسل بالمنـــصرين لأفـــريقيا وآسيا، ولا يخفى أنها لا تفعل ذلك حبا في الدين، ولكنها تبغي من وراء منافع اقتصادية وسياسية...إلخ.

٢–التغير العلمي (النهضة العلمية):

بعد أن احتك الغرب بالمسلمين من خلال المعابر الثقافية في كل من الأندلس وصقلية وجـــنوب الأنـــدلس والتي كانت تحت حكم المسلمين، وبعد احتكاك الغرب المباشر من خلال الحروب الصليبية والتي عاش فيها كثير من الغربيين في البلاد الإسلامية وذلك على مدار حوالي مائتي عام، وجد الغرب نفسه أمام عقلية متفتحة غير العقلية الأوربية الجامدة، "فاســـتيقظ العقـــل الأوربي من سباته وأخذ يقتبس عن المسلمين طرائق البحث ومناهج التفكير التي تجعله يكد ويعمل في مجال اختصاصه دون وصاية ضاغطة.

وثـــارت ثائرة رجال الكنيسة على الذين يتلقون علوم الكفار (المسلمين)، ويعرضون عن التعاليم المقدسة فأعلنت حالة الطوارئ ضدهم، وشكلت محاكم التفتيش في كل مكان تتـــصيدهم وتـــذيقهم صنوف النكال، وأصدرت منشورات بابوية جديدة تؤكد العقائد الـــسابقة وتلعـــن وتحرم مخالفيها، وبذلك قامت المعركة على قدم وساق، وأخذت تزداد سعارًا بمرور الأيام.

وكـــان مـــن سوء طالع الكنيسة أن النظريات الكونية سبقت النظريات الإنسانية في الظهـــور، وهـــي نظريات أثبتت الأيام صحتها –إجمالاً– بخلاف الأخرى، وبذلك قدر للكنيـــسة أن تصطدم بالصحيح قبل الزائف، فلما خسرت معركتها معه سهلت هزيمتها أمام الآخر"[1].

---

(١) العلمانية- (ص١٤٩-١٥٠).

فقـــد ظهـــرت نظريات كوبرنيق وبرونو وغاليلو العلمية التي قاومتها الكنيسة، فدعا ذلك إلى ثورة العلماء ودعاة التجديد مطالبين بتقديس العقل واستقلاله بالمعرفة بعيدًا عن الوحي.

ثم ظهـــرت نظرية نيوتن في الجاذبية، والتي أيدها بقانون رياضي مطرد، وقد اعتبرت أعظـــم النظـــريات العلمية أثرًا في الحياة الأوربية، فهي التي وضعت أساس الفكر المادي الغربي وإليها يعزى الفضل الأكبر في نجاح كل من المذهب العقلي والمذهب الطبيعي.

وفي ســـنة ١٨٥٩م نشر الباحث الإنجليزي "تشارلز داروين" كتابه "أصل الأنواع"، فأحدث ضجة لم يحدثها أي مؤلف آخر في التاريخ الأوربي قاطبة، وكان له من الآثار في المجالات الفكرية والعلمية ما لم يكن في الحسبان[1].

ولقـــد كثـــرت المخترعات العلمية منذ اكتشاف قوة البخار والتي ترتبت عليها ثورة الغرب الصناعية، واكتشاف الكهرباء، واختراع اللاسلكي، وثورة الاتصالات عبر الأقمار الـــصناعية، والـــتقدم الهائل في صناعة الدواء والصناعات الحربية..إلخ، كل هذا يجعل هذا العصر خليقًا بأن يطلق عليه "عصر التقدم العلمي والتقني".

ولقـــد أذهل هذا التقدم العلمي الدول المتخلفة فجعلها تتنافس في تتبع خطى الغرب، وكذا الغرب من منطلق القوة أراد فرض سيطرته على تلك الدول على ما سنبينه.

٣-التغير الفكري:

منذ أن خلعت أوربا ربقة الدين من عنقها وهي تموج بأفكـــار ومذاهـــب فكريـــة ســـاعدت علـــى تأزم مشكلاتها، وقد بلغ الأمر بهذه الأفكار أن بلغت حد التناقـــض، والقضيـــة أنهم ظنوا أن العقل يعصمهم من الزلل لذا جعلوا التحاكم إليه، ولم يفطنوا إلى أنهـــم إنمـــا يعتمدون على أهوائهم، وأن هذه الأهواء لا تسير على خط واحد حتى يمكن الاتفـــاق بيـــنها؛ لذا وجدت الأفكار المختلفة والتي يصل بها الحال أن تكون على طرفي نقيض.

---

(١) انظر: السابق- (ص١٤٩) وما بعدها.

وكانت بداية ظهور المذاهب الفكرية عندما أراد العلماء التفلت من سيطرة الكنيسة؛ فطالبوا بتقديس العقل واستقلاله بالمعرفة بعيدًا عن الوحي، و لم يجرؤ دعاة المذهب العقلي أول الأمر على إنكار الوحي بالكلية، بل جعلوا لكل من الطرفين دائرة خاصة يعمل فيها مستقلا عن الآخر.

وكان مذهب ديكارت أبرز المذاهب الفلسفية في هذا العصر، وقد دعا إلى تطبيق المنهج العقلي في الفكر والحياة واستثنى من ذلك –لسبب ما– الدين والعقائد الكنسية والنصوص المقدسة، ولكن سبينوزا طبق المنهج العقلي على الكتاب المقدس، ووضع الأسس التي قامت عليها "مدرسة النقد التاريخي" التي ترى أنه يجب أن تدرس الكتب الدينية على النمط نفسه الذي تدرس به الأسانيد التاريخية، أي على أساس أنها تراث بشري وليست وحيا إلهيا.

أما جون لوك فقد خطا خطوة أبعد من ديكارت بأن طالب بإخضاع الوحي للعقل عند التعارض، كما دعا إلى تطبيق مبدأ جديد على الحياة الأوربية آنذاك، وهو مبدأ التسامح الديني وإعطاء الحق لكل إنسان في أن يعتنق ما يشاء ويكفر بما يشاء من الأديان والمذاهب.

وبعد اكتشاف نيوتن لقانون الجاذبية أثر هذا الاكتشاف في وضع أساس الفكر المادي الغربي؛ حيث وجه الغرب طاقاته العقلية في اكتشاف الطبيعة بجميع أسرارها، ومن هنا طرح الفكر الغربي عبادة "إله الكنيسة" واتجه لعبادة العقل والطبيعة، يقول سول: صار لزامًا على الذين نبذوا الإيمان بالله كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك ووجدوه في الطبيعة اهـ.

وكتب الفكر الغربي تسمي ذلك العصر عصر "تأليه الطبيعة" أو "عبادة الطبيعة" وليست هذه العبارة مجازًا، بل هي مستعملة على الحقيقة تمامًا.

وجدير بالذكر أن شيوع المذهب العقلي الطبيعي في عصر التنوير قد نتج عنه بالاعتماد على نظرية نيوتن مذهبان جديدان على العالم المسيحي ينمان عن التخبط والضياع:

الأول: مذهب المؤلهة الربوبيين "دايزم" (Deism) أو "المؤمنين بإله مع إنكار الوحي"، وهـــذا المـــذهب يمثل فكرة انتقالية؛ لأن الوثبة من إله مسيحي إلى عدم وجود إله كانت مستحيلة كما يقول برنتن.

وكان من زعماء هذا المذهب فولتير وبوب ومعهم عدد آخر ممن كانوا يرون ضرورة الإيمان بالله –ولو أمام الجمهور– أما الوحي فأنكروه؛ لأن إثباته يعني صحة تعاليم عدوهم الكنيسة، وليس معنى ذلك أن إيمانهم بالله يمكن أن يسمى إيمانًا على الحقيقة فإن كل عمل هـــذا الإلـــه في نظرهم هو أنه خلق الكون ثم تركه يدور وفق القوانين المودعة فيه والتي أوضحها نيوتن.

الثاني: المذهب الإلحادي المادي: إن قمافت مذهب المؤلهة وتفاهته هي التي أوحت إلى بعـــض معاصريهم بإنكار هذا الإله البعيد الذي لا أثر له ولا ضرورة لاختراعه كما تقول حكمة فولتير: "إذا كان الله غير موجود فلابد من اختراعه"! فالطبيعة تغني عنه والاعتراف بوجـــوده هو نوع من الإقرار بصحة دعاوي الكنيسة، فالأولى أن نستبعد وجوده نهائيا، إرغامًا لأنف الكنيسة على الأقل.

وتطرف منهم قوم "رأوا أن الله شر إنجابي، وبخاصة إذا كان إله الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

يقـــول كرسون: ذهب بعضهم في الإنكار إلى أبعد حد إنهم يدعوننا حتى إلى حذف اســـم الله نفسه، وفي هذا يقول دولباخ: إن عقيدة الله المأثورة نسيج من المتناقضات، إن فكرة الله هي الضلالة المشتركة للنوع الإنساني اهـــ.

ثم جـــاءت الـــثورة الفرنسية مجسدة للفلسفات والمذاهب المناقضة للدين؛ فقد استمد زعمـــاء الثورة مبادئهم واقتباساتهم من كتاب "العقد الاجتماعي" لروسو الذي أطلق على كتابه "إنجيل الثورة الفرنسية"، وكذلك من كتاب "روح القوانين" لمونتسكيو.

ثم جاءت وضعية "أوجست كونت"؛ حيث ساد الحس كمصدر للمعرفة، ومال اتجاه التفكير إلى سيادة الطبيعة على الدين والعقل معًا، وإلى استقلال "الواقع" كمصدر للمعرفة اليقينية مقابل الدين والعقل.

لقد استأصل المذهب الواقعي فكرة المطلق، وأراد أن يقضي على اللاهوت والميتافيزيقا على السواء ويحل محلهما الواقعية التي لا تعترف بيقين للمعرفة إلا إذا كانت آتية عن طريق التجربة، وهذا المنطق يؤدي حتمًا إلى أن ما وراء الطبيعة والمعرفة الآتية عنه ليس لها صفة اليقين، وعلى هذا الأساس يكون الدين الذي هو وحي من كائن وراء الطبيعة ليس له صفة اليقين، فإذن: يجب إبعاد اللاهوت والفلسفة الميتافيزيقية عن توجيه الإنسان وإحلال الفلسفة الواقعية محلهما في رسم منهج للإنسان يسير عليه حتى يحصل السعادة، وأن الهدف الذي يجب أن يصل إليه الإنسان ويضحي بفرديته من أجله هو الإنسانية، وهي في المذهب الواقعي تقوم مقام اللاهوت.

يقول الأستاذ يوسف كرم: تلك هي ديانة الإنسانية مسخ بها كونت الديانة المسيحية، ونصب نفسه كاهنها الأكبر، ووضع لها شعارًا المحبة كمبدأ، والنظام كأساس، والتقدم كغاية، فكان له بعض الأشياع في فرنسا وإنجلترا والسويد وأمريكا الشمالية والجنوبية تبعوا في كل بلد كاهنًا أكبر وأقاموا معابد اهـ.

ثم ظهرت نظرية دارون في علم الأحياء، ورغم أنها في مجال الطبيعة إلا أنها أثرت في الأفكار والفلسفات تأثيرًا بعيد المدى؛ فالنظرية التي تقرر حيوانية الإنسان وماديته "بمعنى أن الظروف المحيطة به هي التي أثرت في "تطوره" وإعطائه صورته" والتي تنفي القصد والغاية من خلقه، وتنفي التكريم الرباني له بإفراده بين الكائنات الأخرى بالعقل والقدرة على التمييز فضلاً عن المزايا الأخرى "الإنسانية"..

إن نظرية كهذه يمكن أن تعطي إيحاءات خطيرة في كل اتجاه.

فحين يكون الإنسان حيوانًا أو امتدادًا لسلسلة التطور الحيواني فأين مكان العقيدة في تركيبه، وأين مكان الأخلاق، وأين مكان التقاليد الفكرية والروحية والأخلاقية والاجتماعية..إلخ؟!

وحين يكون حيوانًا أو امتدادًا لسلسلة التطور الحيواني، فما مقياس الخطأ والصواب في أعماله؟ وكيف يقال عن عمل من أعماله: إنه حسن أو قبيح، جائز أو غير جائز.. بعبارة أخرى: كيف يمكن إعطاء أخلاقية لأعماله؟ وحين يكون حيوانًا أو امتدادًا لسلسلة التطور

الحيواني، فما معنى "الضوابط" المفروضة على سلوكه؟ وما معنى وجود الضوابط على الإطلاق؟

كل تلك إيحاءات يمكن أن تستخرج من النظرية لمن أراد أن يصطاد في الماء العكر! ولكننا إذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أن أحدًا لم يصنع ذلك سوى اليهود!! هم الذين استخرجوا هذه الإيحاءات كلها التي لم يقلها دارون، وربما لم يفكر فيها أبدًا، ولكنهم أسرعوا إلى اقتناصها، وأنشأوا منها نظريات "علمية" اقتصادية ونفسية واجتماعية.. إلخ موجهة كلها لمحاربة الدين والأخلاق والتقاليد..

وكانت فكرة "التطور" ذاتها من أشد ما لعب به اليهود لزلزلة عقائد "الأمميين" وتقويضها.. فقد ضخموا تلك الفكرة أي تضخم وصنعوا منها قذائف يطلقونها على كل معنى "ثابت" في حياة البشرية من دين أو قيم أو أخلاق.

والحق -مرة أخرى- أنهم لا ينشئون الأحداث ولكنهم يتحينون الفرص ويستغلون الأحداث، لقد وجهوا قذيفة مدمرة إلى فكرة "الثبات"، فقالوا -عن طريق استخدام فكرة "التطور": إنه لا شيء ثابت على الإطلاق، وإن طلب الثبات في أي شيء: الدين أو الأخلاق أو التقاليد..إلخ، هو في ذاته فكرة خاطئة! فكرة غير علمية! فكرة مخالفة لطبيعة الأشياء.

ثم ظلوا يرددون هذه الأقاويل وينشرونها ويؤكدون عليها، حتى صارت هي الصبغة المسيطرة على الفكر "الأممي" لا يقبلون فيها جدلاً ولا مناقشة.. ومن ناقش فهو "الرجعي" "المتزمت" "الجامد" "المتأخر" الذي يريد أن يرجع عقارب الساعة إلى الوراء.. وعقارب الساعة لا ترجع أبدًا إلى الوراء!! وستسحقه عجلة "التطور" التي لا تبقي ولا تذر!!

من بين الأسماء "اللامعة!" التي شكلت الفكر الأوربي الحديث ثلاثة أسماء على الأقل من "كبار" اليهود: ماركس وفرويد ودوركايم، كل منهم قام بدوره في زلزلة الفكر الأممي وإعادة تشكيله على النحو المطلوب.. وكل منهم قام بدوره في تحطيم الأعداء الألداء للمخطط اليهودي: الدين والأخلاق والتقاليد.. وكل منهم بنى أفكاره "العلمية!" على أساس النظرية الدارونية من هنا أو من هناك..

فأمـــا ماركس أبو الشيوعية والمادية الجدلية والتفسير المادي للتاريخ فقد أخذ جوهر النظرية الداروينية وأنشأ على أساسه نظرية اقتصادية وتفسيرًا للحياة البشرية يحصر الإنسان في عـــالم المـــادة والتطور المادي، ويجعل قوانين المادة منطبقة على عالم البشر!! كما يجعل أمـــور الحياة كلها، من عقائد ومشاعر وأفكار وأنماط سلوكية ومنظمات ومؤسسات.. إلخ.. تبعًا للطور الاقتصادي وللأوضاع المادية التي يعيش فيها الإنسان ومجرد انعكاس لها، لا تـــسبقها ولا تخـــرج عـــنها، ولا دور للإنسان فيها إلا أن يدور مع الطور الاقتصادي ومتقضياته.. لأنها "حتميات".

وقـــسم الحـــياة البشرية بمقتضى هذا التصور إلى خمس مراحل حتمية: هي الشيوعية الأولى والرق والإقطاع والرأسمالية والشيوعية الثانية والأخيرة.

وجعـــل الانتقال من كل طور من هذه الأطوار إلى الطور اللاحق له حتميا من جهة، ومردودًا إلى أسباب مادية واقتصادية من جهة أخرى.

وأمـــا فرويد فقد أنشأ نظرية نفسية لتفسير تركيب النفس الإنسانية ونشاطاتها، بناها على فكرة حيوانية الإنسان.

وخلاصة هذا التفسير أن الطاقة الجنسية هي الطاقة العظمى في الكائن البشري، وهي المسيطرة على طاقاته جميعًا، والموجهة لها، والمسخرة لها كلها لحسابها الخاص!

يولد الطفل بطاقة جنسية، وتسيطر عليه –منذ لحظة مولده– تلك الطاقة الجنسية التي ولـــد بهـــا، فيرضع ثدي أمه بلذة جنسية، ويتبول ويبترز بلذة جنسية، ويمص إبهامه بلذة جنـــسية، ويحـــرك أعضاءه بلذة جنسية.. ثم ينمو الصبي فيحس تلقاء أمه بشهوة جنسية (كما تحس الصبية بالشهوة الجنسية تلقاء والدها) ولكنه يجد أباه حائلا بينه وبين الاستيلاء علـــى الأم التي يشعر نحوها بتلك الشهوة الجنسية، فيكره أباه الذي يحبه في ذات الوقت، ويـــصطرع الحـــب والكـــره اللذان يحس بهما في آن واحد تجاه الأب، فيكبت الكره في اللاشـــعور، الذي تدفن فيه –ظاهريا– كل الرغبات المكبوتة والمخاوف المكبوتة ولكنها تبقـــى حـــية فاعلة مؤثرة موجهة لسلوك الإنسان دون وعي، ويظهر الحب وحده على السطح؛ لأن ذلك هو الذي يعجب المجتمع! (أي نفاقًا!).

ولكن القضية لا تنتهي عند هذا الحد ولا على هذه الصورة؛ فإن الصبي يأخذ في حس نفسه مكان والده، تعويضًا عن عجزه عن الاستيلاء على الأم بسبب قيام والده حاجزًا بينه وبينها، فيروح ينهى نفسه ويأمرها كما ينهاد أبوه ويأمره، فينشأ الضمير، وتنشأ -في نفس الطفل- القيم الأخلاقية التي يتعاطاها المجتمع، ويرضى عنها، كما ينشأ الدين من ذات العقدة التي سماها عقدة أوديب (ويقابلها عقدة إليكترا عند البنت) وهي العقدة الناشئة من الكبت الجنسي لشهوة الصبي الجنسية نحو أمه (وشهوة البنت الجنسية نحو أبيها).

وهكذا تنشأ القيم العليا كلها: الدين والأخلاق والتقاليد المستمدة من الدين، من تلك العقدة الناشئة من الكبت الجنسي.

وأما دوركايم فقد أنشأ نظرية اجتماعية لتفسير الظواهر الاجتماعية بناها على حيوانية الإنسان وغلبة نزعة القطيع الحيوانية عليه من جهة، وعلى انعدام الثبات في القيم الاجتماعية من جهة أخرى[1].

ومن المذاهب الملحدة كذلك "الوجودية" وهي تيار فلسفي يزعم أنه يعلي من قيمة الإنسان، ويؤكد على تفرده وأنه صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار، ولا يحتاج إلى موجه.

والوجودية لها مدرستان:

-مدرسة تقر بوجود خالق، وإن كانت لا تجعل له الطاعة والخضوع، من أبرز رجالها الفيلسوف الألماني الكاثوليكي المعاصر كارل جاسبرز، ولكنها في دائرة ضيقة لم يلتف حولها إلا جمع قليل من المفكرين.

-مدرسة ملحدة تنكر وجود الخالق ﷻ، من أبرز رجالها الفيلسوف الفرنسي جان

---

(١)انظر: العلمانية- (ص١٥٢) وما بعدها، مذاهب فكرية معاصرة- (ص٩٨) وما بعدها- د/محمود عبدالحكيم عثمان: جهود المفكرين المسلمين المحدثين في مقاومة التيار الإلحادي- مكتبة المعارف- الرياض- (١٤٠١هـ-١٩٨١م)- (ص١٨٠) وما بعدها.

بـــول ســـارتر، وهذه المدرسة هي التي بيدها قيادة الوجودية حاليا، وهي المقصودة عند إطلاق اسم الوجودية.

والفكر الغربي الآن ينقسم إلى: فكر مادي وفكر وجودي:

أمـــا الفكر المادي فهو الفكر العلماني الذي انبعثت من المناهج السياسية والاقتصادية سواء الديمقراطية منها أم الماركسية.

أمـــا الفكـــر الوجودي فهو الفكر الإنساني المتصل بالوجدان والنفس والحياة، ويرى أتـــباع الفكر الوجودي أن الفكر المادي صهر الإنسان وحوله إلى ترس آلة؛ ولذلك فهو يبحث عن وجوده، ويريد أن يختار موقفه من الحياة وطريقه، ويتحمل مسئولية اختياره ثم يخطو سارتر بالفكر الوجودي خطوة أخرى فيتحرك داخل إطار الفكر المادي فينكر الإله والـــبعث والجـــزاء، فمذهب سارتر الوجودي قد انبثق من المذهب المادي واختار فكرة العدمية وإنكار وجود الله أساسًا له.

أما نشأة التيار الوجودي الحديث فيعتبر سيرن كير كجورد الفيلسوف الدنماركي هو المؤســـس الحقيقـــي للتـــيار الوجودي بالمعنى المعاصر، فقد وجدت فكرته عن الوجودية المعاصرة صدى كبيرًا عند الكثيرين من معاصريه ومن بعدهم حتى صارت تيارًا فلسفيا.

وقد استكمل مارتن هدجر مذهب الوجودية حتى أصبح من أكبر المذاهب الفلسفية؛ لذا يلقب عند الوجوديين بزعيم الوجودية.

أما جان بول سارتر فهو أشهر زعماء الوجودية حتى طغت شهرته على كثير من دعاة الوجودية، وهو أول فيلسوف يرتضي أن يلقب بلقب وجودي[1].

ويجـــب أن لا ننـــسى دور اليهود في العمل على نشر المذاهب الإلحادية في الغرب، وتسليط الضوء عليها، والاستفادة من ثمراتها إلى أبعد حد ممكن.

فـــدورهم في الانحراف بالقيم والأخلاق وإفساد العقول أمر معروف على من يعرف أســـاليبهم ومكـــرهم؛ فهم قد "تمكنوا من تجنيد بعض علماء اليهود –كما رأينا- لوضع

---

(١)انظر د/علاء بكر: مذاهب فكرية في الميزان- دار العقيدة- الإسكندرية- (ص٣١٢) وما بعدها.

شـــبه نظريات علمية مبتدعة لإفساد المجتمع الإنساني وهدم الأديان والأخلاق، ومن أمثلة ذلك كما ذكرنا سابقًا:

-كارل ماركس صاحب النظرية الماركسية المعادية للأديان.

-واليهودي دور كايم صاحب علم الاجتماع لهدم النظام الأسري.

-والـــيهودي فـــرويد صـــاحب النظـــرية الفـــرويدية في علم النفس لإثارة الجنس والغرائز"[1].

ولم يكتف اليهود بذلك بل عملوا على إنشاء حركات ومنظمـــات ونـــوادٍ تعمـــل عـــلى نشر فكر اليهود، ومحاولة التمكين لهم بشتى السبل المشروعة وغير المشروعة؛ مثل الحـــركة الـــصهيونية التي كانت ترمي إلى إقامة دولة لليهود في فلسطين تحكم من خلالها العالم كله.

وهناك منظمات ونوادٍ تخدم الصهيونية سرًا، وتظهر بخلاف ما تضمر:

١-الجمعيات الماسونية.

٢-أندية الروتاري.

٣-أندية الليونز.

فالماســـونية مـــثلا وجدت في الفلاسفة الملحدين أمثال: فولتير وروسو ودالمار أنصارًا يعـــادون الأديـــان بغرض نشر الانحلال والرذيلة، وبجهودهم قامت الثورة الفرنسية والتي يعتقد أنها بتدبير وتخطيط الماسونية.

والـــروتاري مؤســـسة دولية ظاهرها أنها تعمل في مجال الخدمة الاجتماعية والثقافية، وحقيقتها أنها منظمة تعمل لصالح الماسونية وتسيطر عليها اليهودية العالمية.

أمـــا الليونـــز (المنظمة العالمية لأندية الأسود) هي مجموعة نواد ذات طابع خيري في الظاهـــر وتابعـــة للماسونية في حقيقتها تديرها الأصابع اليهودية لإفساد العالم والسيطرة عليه[2].

---

(١) السابق- (ص٢٥٢) بتصرف.

(٢) السابق- (ص٢٦٥) وما بعدها.

وقبل أن نختم حديثنا عن التغير الفكري لا ننسى تلك النظرية المستحدثة عند الغرب والتي تنطلق من إحساس الغرب بمركزيته في العالم، والتي يحاول من خلالها أن يصبغ العالم كله بفكره سواء أكان منحرفًا أم مستقيمًا، وهذه النظرية هي نظرية العولمة والتي تعني بالإنجليزية (Globalization) وترجمتها في العربية "كوكبة"، وهي ظاهرة رأسمالية تختص وتكمن أساساً في الدول الرأسمالية الكبيرة، ولا تنتج من عندنا ولسنا طرفاً فيها.

ويقول "مارتن ولف": "العولمة هي عملية غسيل حقيقية للأدمغة" ويقول آخر: "العولمة هي صياغة جديدة للعالم تلغى فيها ذاتية الشعوب".

ويقول الأستاذ "فتحي يكن": إنها أشبه بالاجتياح... اجتياح الكبير للصغير، والقوي للضعيف، والغني للفقير... اجتياح مشاريع الآخرين لحضارتنا وثقافتنا، وتراثنا.

-إنها استرقاق ولكن تحت غطاء عصري مزيف، وشعار براق مكذوب.

-إنها السقوط في الأفخاخ المنصوبة، وبالتالي ضياع الهوية والشخصية[1].

-إنها الأمركة وفرض النظام الأمريكي الاجتماعي والسياسي والأخلاقي والسلوكي على العالم.

-إنها صهينة العالم وإخضاعه لهيمنة الصهيونية؛ وذلك أن الاقتصاد العالمي يخضع لسلطانها، كما أنها هي التي تحكم أمريكا من داخلها، وما أمريكا إلا القناع الذي تلبسه الصهيونية، ويختفي وراءه اليهود.

يقول البروتوكول الخامس عشر: "يجب أن يكون الدولار في المائة سنة القادمة عملة العالم"، ويقول البروتوكول العشرون: "إن استيلاءنا على ثروات العالم عن طريق الأسهم والسندات سيضطر الحكومات إلى طلب العون المالي منا"[2] .

---

(١) فتحي يكن -رامز طنبور: العولمة ومستقبل العالم الإسلامي، ص(١٢).

(٢) محمد خليفة التونسي (ترجمة): الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون- مكتبة دار التراث- القاهرة- ص(٢٣١-٢٦٤).

ويـــرى البعض أنها تبشر بوعود مشرقة، أو أنها ديناميكية جديدة تبرز داخل العلاقات الدولية، أو أنها دعوة إلى عالمية المصالح والأهداف، ولكن الأمر ليس كذلك.

فإن المراد بها على الصعيد الاقتصادي:

-تحويل اقتصاديات الدول الأخرى إلى اقتصاديات تابعة لا تستطيع تحقيق نموها الذاتي إلا اعتمادا على اقتصاديات الدول الغربية لاسيما الاقتصاد الأمريكي.

-وتحـــويل شعوب العالم الأخرى إلى شعوب مستهلكة للمنتج الغربي بمختلف أشكاله ونوعياته.

أما على الصعيد السياسي، فهو: أن تتحول دول العالم الأخرى إلى نماذج مشوهة من ديمقراطية الغرب، خاضعة لما يملى عليها من قبل الدول الغربية.

وأخـــيراً: إنهـــا مـــصطلح ظاهـــره الـــرحمة، وباطنه فيه العذاب الشديد، إنها أشبه بالمـــصطلحات الأخـــرى المثيلة كالخصخصة والحصحصة والعصرنة والممكنة، والعقلنة، والأمركة، والفرنسة، والصهينة... وصولاً إلى الشيطنة[1].

الأسس التي تقوم عليها العولمة:

-إزالة الحواجز والحدود أمام حركة التجارة والثقافة العالمية.

-العمـــل على دمج اقتصاديات العالم في اقتصاد واحد خاضع لنظام البلدان الصناعية المـــتقدمة ومجموعة البلدان السبع الصناعية، وبالتالي القضاء على أي نظام اقتصادي آخر سواء أكان هو النظام الإسلامي أو النظام الاشتراكي.

-حـــرية انـــتقال الـــسلع والبضائع أي: تحويل الأسواق الوطنية إلى مستهلك للسلع والخدمات الأجنبية، وفتح الحدود القطرية أمام انتقال المواد الخام دون قيود أو حدود.

-تعميم وتوسيع الخصخصة على جميع القطاعات الزراعية والنقل والمواصلات .

-مـــنح المزيد من المرونة والصلاحيات لتوسيع فعاليات الوكالات الدولية والجمعيات الأهلية.

---

(١) انظر: العولمة ومستقبل العالم الإسلامي- (١١).

العولمة والثقافة:

الثقافة العربية:

"الثقافة العربية": عربية اللسان، إسلامية المضمون والتاريخ، وهي كائن حي يضم العناصر الثلاثة: الوطنية والقومية والإسلامية، وهي في جملتها واقعية، عملية، متحررة، تقدمية، إنسانية"[1].

معالم الثقافة العربية وخصائصها:

إن الثقافة العربية ثقافة متميزة، تختلف عن ثقافات الغرب والشرق وتتسم باتصالها بالفكر الإسلامي والقرآن، وتقوم على أساس اللغة العربية الفصحى وميراثها، وتستمد من التاريخ الإسلامي فإن معالمها وخصائصها مما لا يقع تحت حصر، ويمكن أن نستوعب أبرز خطواتها في نقاط رئيسية: التوحيد- الأخلاقية- التوازن بين الروحي والمادي- النظرة العقلية المؤمنة- الحرية المنضبطة- القدرة على التصحيح- الترابط بين الماضي والحاضر- الجمع بين الدنيا والآخرة- القدرة على التطور- الطابع الإنساني- الوسطية- التكامل[2].

وجوه التباين والاختلاف بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية

لا ترى الثقافة الغربية أن "الدين" جزء أساسي من تكوين فكرها وثقافتها، بينما الثقافة العربية تؤمن بالدين جزءاً أساسياً لا ينفصل عن المجتمع.

والثقافة الغربية تنكر الغيبيات وتؤمن بمادية الحياة وبالمحسوس والملموس، بينما تؤمن الثقافة العربية بأن هناك جانبًا من الحياة لا يصل إليه الحس أو النظر، ولكنه يفهم بالعقل والإيمان.

تعلي الثقافة الغربية من شأن الجنس، وتحاول أن تجعل من الآريين والبيض والغربيين جنسا متميزًا؛ استعلاء على الساميين والملونين والشرقيين، بينما ترى الثقافة العربية أن

---

(١) أنور الجندي: الثقافة العربية، ص(٢٣).

(٢) السابق، نفس الصفحة.

الناس سواسية كأسنان المشط، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل[1].

إن الثقافة الغربية الحادية لا تتفق بحال من الأحوال مع الثقافة العربية التي تمتزج بالإسلام والإيمان، ويجرى التوحيد فيها مجرى الدم في الشعيرات، في شعرها ونثرها في أدبها وعلمها وفلسفتها، في كتب اللغة وكتب الدين، وكتب العلم على اختلافها[2].

أخطار العولمة في المجال الثقافي:

الثقافة الغربية والفكر الغربي واقع تحت تأثير خطرين كبيرين:

الخطر الأول:

خطر الجذور الوثنية الإغريقية الرومانية البعيدة المدى في تشكيل مزاجه وطوابعه، وهو مزاج ليس الدين جزءا منه، ولا ارتباط له أساسا بالمفاهيم الروحية أو الغيبية، أو مفاهيم التوحيد والنبوة.

الخطر الثاني:

وهو الخطر الأدهى والأمر! إنه خطر اليهودية وقيمها التي يسجلها التلمود والمشنا[3] وهو ما كشف عنه في أواخر القرن التاسع عشر بما يسمي بروتوكلات حكماء صهيون، والدعوات الصهيونية، والماسونية والبهائية.

مما سبق يتضح لنا أنه لا تشابه ولا ارتباط بين الفكر الغربي والفكر العربي الإسلامي؛ لذا فالدعوة إلى عولمة الثقافة أو عالمية الثقافة دعوى فارغة ضالة تنطوي على نوايا خبيثة!

عولمة جسد المرأة:

لقد استخدمت المرأة أسوأ الاستخدام في الدعاية للعمل الرخيص كالدعارة،

---

(١) السابق، ص(١٢٥- ١٢٨) باختصار.

(٢) يوسف القرضاوي: الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، دار الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ص(٢٧) بتصرف.

(٣) التلمود والمشنا: من كتب اليهود.

والمخدرات وأنواع الموسيقى والغناء، ومختلف أشكال الترفيه.

إن ما نراه الآن في بلادنا الإسلامية على شاشات التلفاز من استعراض النساء لمفاتنهن، ووقـــوفهن بجانب سيارة أو شامبو أو وجبة جديدة لهو صورة ومظهر من مظاهر العولمة الثقافـــية الـــتي غزت ديار الإسلام العتيقة، وحملت إليها جراثيمها الملوثة التي باتت تهدد مجتمعنا بالأخطار والزوال.

إن المرأة -اليوم- تلعب دوراً خطيراً في تبني هذه الظاهرة (العولمة الثقافية) والترويج لها في كل مكان، والدليل على هذا ما يأتي:

أكوام المجلات التي تحمل صوراً لفتيات عاريات أو شبه عاريات بلغة أو بأخرى تدعو إلى الـــرذيلة والفساد، ولا شك أن هذه المجلات التي تملأ الأرصفة والشوارع هي من نتاج انفتاح الثقافة بين الدول وبعضها.

أنـــواع الدعاية المختلفة التي تزدحم بها أجهزة التلفاز، والتي تبدو فيها المرأة راقصة، ومغنية، تعرض تفاهة، فها هي لا تزيد على أن تكون من وسائل الترفيه الفارغة التي تغرق المجتمع في تيار من الرفاهية ووسائل الراحة الزائدة التي تقضي على مكامن الإبداع والطاقة لدى الإنسان.

نـــوادي الماســـونية التي ظهرت في أثوابها الجديدة البراقة وهي البهائية، والروتاري، والليونـــز، والتي انتشرت في العالم الإسلامي انتشار النار في الهشيم، وأخذت تعمل على إشاعة التهتك والدعارة والجنس والتجسس والإغراء، ومحاربة الوطنية ومصارعة الارتباط بالدين، وإشاعة الثقافة اليهودية...

طريق المسلمين إلى التحرر

"إن أول خطوة في طريق الحفاظ على الخصوصيات الثقافية هي إثبات الهوية والحفاظ علـــيها، فلسنا أقل من فرنسا التي اتخذت موقفاً متشدداً في هذا الصدد، فاتخذت إجراءات قانونـــية صارمة سواء داخل فرنسا أو خارجها للمحافظة على لغتها الفرنسية، ولسنا أقل مـــن الـــصين واليابان، فبرغم أن الصينيين واليابانيين يجيدون اللغة الأمريكية (الإنجليزية) إجـــادة تامة، فإن إجادة اللغة الإنجليزية لم تجعلهم يعتنقون الثقافة الأمريكية!! لقد تعلموا

لغـــة الأمريكان ليتعرفوا على العلوم والتكنولوجيا الأمريكية، وبعد أن فهموا هذه العلوم جـــيداً طـــوروها وأضافوا إليها، وقاموا باختراعاتهم واكتشافاتهم التي فاقت التكنولوجيا الأمريكية.

فهـــل نـــنتهج نهجهـــم ونحـــذو حذوهم لنحافظ على هويتنا وخصوصياتنا العربية الإســـلامية، أم نتـــرك ثقافـــة الماكدونالـــدز، والهامبورجـــر، والكوكاكولا، والعنف، والاغتـــصاب، والشذوذ الجنسي، وسيادة الدولار تطغى وتهيمن على خصوصيات الثقافة الإســـلامية المرتكـــزة على التآخي والإيثار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإيتاء ذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل"[1].

٤-التغير الاجتماعي:

كان المجتمع الأوربي في عصر النهضة يتكون من رجال الكنيسة على كافة مستوياتهم، ورجال الدولة وحاشيتهم، ثم عامة الشعب، وقد كان النظام الاجتماعي الذي هيمن على الحـــياة الأوربية طيلة القرون الوسطى هو نظام الإقطاع؛ حيث كانت الكنيسة أكبر ملاك الأراضـــي، وأكـــبر الـــسادة الإقطاعـــيين في أوربا؛ فقد كان دير "فلدا" -مثلاً- يمتلك ١٥٠٠٠ قصر صغير، وكان دير سانت جول يملك ألفين من رقيق الأرض، وكان الكوين فيـــتور أحد رجال الدين سيدًا لعشرين ألفًا من أرقاء الأرض، وكان الملك هو الذي يعين رؤســـاء الأساقفة والأديرة... وكانوا يقسمون يمين الولاء كغيرهم من الملاك الإقطاعيين، ويلقـــبون بالـــدوق والكونت وغيرها من الألقاب الإقطاعية... وهكذا أصبحت الكنيسة جزءًا من النظام الإقطاعي.

ثم حـــدثت تحولات ظاهرة في الحياة الأوربية أدت إلى تخلخل المجتمع الأوربي وتغيير بعـــض ملامحـــه الثابـــتة؛ فابـــتدأت المـــدن الأوربية في النمو، وظهرت الطبقة الوسطى الـــبورجوازية فظهـــر منافس قوي للإقطاعيين يتمثل في طبقة في المدن البورجوازية الذين

---

(١) د.فـــوزية العـــشماوي: الحـــوار بين الحضارات والخصوصيات الثقافية، جريدة الأهرام، العدد (٤١٩٣٦)، ١٣ رجب ١٤٢٢ هـــ، سبتمبر ٢٠٠١.

كانوا بمثابة الطلائع للرأسماليين الكبار.

ثم قامت الثورة الفرنسية على يد الشعب الذي أنهكته الضرائب والمظالم ضد رجال الدين والأشراف، وكانت الثورة الفرنسية فاتحة عصر جديد في التاريخ الأوربي؛ إذ توالت بعدها الثورات كالبراكين في أنحاء القارة، وعرفت أوربا -ربما لأول مرة- شيئًا اسمه حقوق الإنسان، وكان نجاح أي ثورة يعني انهيار النظام الإقطاعي وانهيار نفوذ الكنيسة، ونشوء نظام حكم لا ديني.

وفي ظلال هذا الحكم اللاديني التقت مشاعر الناس وتعلقت عواطفهم بكلمة سحرية خلابة ترمز لمبدأ جديد جذاب اتفق في المناداة به الطبيعيون والنفعيون والجماعيون والفرديون ذلك هو مبدأ الديمقراطية ومن الذي لا تخلب الديمقراطية لبه من الشعوب المضطهدة والعقول المغلوبة؟! الشعب هو سيد نفسه وهو مصدر السلطات ولا وصاية لأحد عليه..

وللمواطن -أيا كانت عقيدته أو جنسيته- حريات وحقوق لم يكن ليحلم بها من قبل: حرية العمل، حرية التنقل، حق إبداء الرأي، حرية السلوك، حرية العقيدة، حق التظاهر والاحتجاج...

وله كذلك ضمانات لم تكن- وهو في ظل الإقطاع- لتدور له في خلد: ضمان الاتهام، ضمان التحقيق، ضمانة المحاكمة، ضمانة التنفيذ.

كل الناس بهرتهم هذه الشعارات وأسكرتهم هذه الأحلام فحاولوا بكل جهدهم نسيان ذلك الماضي الرهيب، ونبذه بكل قيمه ومثله وإن كان من بينها الدين والأخلاق.. وتحرقوا مشتاقين إلى مستقبل باهر وضاء، وطغى على الفكر والأدب اتجاه مغرق في التفاؤل واثق ثقة مطلقة في السعادة والتقدم اللذين لا حد لهما.

ولقد واكبت الثورة الصناعية الثورة الديمقراطية؛ حيث ظهرت الآلات ذات القوى المحركة فنهضت بأكبر عبء من العمل، فامتلأت البلاد بالعمال العاطلين، ووجد أصحاب المصانع الأحرار أن ذلك فرصة لتخفيض الأجور وإطالة ساعات العمل، ووجد العمال أن حريتهم في اختيار مهنهم كانت محدودة بمقياس الحاجة إلى ساعات طويلة في أي عمل

يعرض لهم لقاء أجور تافهة لا تكاد تقيم أودهم.

هكـــذا جاءت الديمقراطية وهكذا تبددت الأحلام والأوهام التي نيطت بها، وأسفرت الـــثورة الصناعية التي واكبت الثورة الديمقراطية عن وجه كالح لا يقل شناعة وفظاعة عن صـــورة الإقطـــاع، وانقلبت الحرية النسبية التي وصل إليها العمال والفلاحون قيودًا ثقيلة ترهق كواهلهم.

ودخلت المرأة مجال العمل وحينما دخلت فقدت معه العرض الذي طالما حافظت عليه مـــن قبل، ففي المجتمع الصناعي اضطرت بعض نساء الريف إلى الهجرة إلى المدينة للعمل هـــناك؛ حيث التقطهن أصحاب المصانع يضربون بهن حركات العمال المطالبة بتخفيض ساعات العمل وزيادة الأجور.. وعاملتهن الجاهلية بتلك الفظاظة الفذة، فأعطتهن نصف الأجر على نفس العمل ونفس الساعات!

ولكـــن الأمـــر لم يقف مع الجاهلية عند هذا الحد.. فالمرأة دائمًا صيد والمرأة المحتاجة صيد ميسر!

وساومها الرجل الذي تعمل عنده.. إما أن تفرط في عرضها وإما أن تعود إلى الجوع الذي فرت منه!

ولم تكـــن الجـــوعة في الحقـــيقة هـــي جوعة المعدة فحسب، وإن كانت هذه كافية للـــسقوط! إنمـــا كان إلى جانبها الحاجة الفطرية الطبيعية إلى الجنس، والحاجة إلى اللباس والزينة، وهي بالنسبة للمرأة ليست كلها كماليات وسقط من الرعيل الأول من العاملات مـــن ســـقط.. وفـــتحن الطريق! ووجد اليهود صيدًا سهلاً يشغلونه في صناعتهم العتيقة العريقة! صناعة البغاء.

ثم ظهـــرت قضية مساواة المرأة بالرجل في الأجر فرفضت الرأسمالية الناشئة وأصرت علـــى الـــرفض، كأنها تحافظ على وضع طبيعي لا يجوز تغييره ولا الخروج عليه! ورفض الرجل كذلك! كأن طلبها عدوان على حقوقه الشخصية أو عدوان على كيانه الذاتي!

وعـــند الرفض طالبت المرأة –أو طولب لها في الحقيقة- بأن يكون لها حق الانتخاب حـــتى يكـــون لهـــا –كما قيل- تأثير في اختيار المرشحين للمجالس النيابية فيدافعوا عن

حقوقها المسلوبة حين يصلون إلى البرلمان.

ورفض الرجل إعطاءها هذا الحق، و لم يعترف أصلاً بأن ذلك حق من حقوقها أو أمر جائز بالنسبة إليها، ثم عادت المعارضة فلانت، وحصلت المرأة في معظم دول أوربا على حق الانتخاب.

ولكنها وجدت أن الأصوات الضئيلة التي تدلي بها في الانتخابات ليس لها وزن حقيقي في المعركة الانتخابية، وحتى إن أثرت تأثيرًا جزئيا طفيفًا في إنجاح مرشح معين، ممن يتعهدون –أو يكونون معروفين- بالتحمس لقضية المرأة والدفاع عنها في المجالس النيابية، فسرعان ما ينسى المرشح وعوده حين يصل إلى البرلمان، أو تضيع صيحته في زحمة الأعمال وزحمة الخطب والكلمات!

عندئذ رؤي لها أن تطالب بحق الترشيح ودخول البرلمان.. لكي تسمع صوتها بنفسها للذين يصنعون القوانين (كأنهم لم يكونوا سامعين من قبل) وتشارك بنفسها في إعداد التشريع، فتضمنه ما يحفظ للمرأة حقوقها.

وقامت قيامة المعارضة كما يحدث في كل مرة، واشتدت حتى ليظن الرائي أن الأمر لن يتم أبدًا.. ثم ظلت أصوات المعارضة تخفت تدريجيا وتلين.. حتى نالت المرأة حق الترشيح.. ودخلت البرلمان!

ثم جاءت قضية تعليم المرأة التي كانت من أشد القضايا إثارة للمعارضة في المجتمع الأوربي، ثم خفت حدة المعارضة شيئًا فشيئًا حتى نالت حقها في التعليم، فخرجت المرأة من البيت لتتعلم، وشاع الاختلاط والصداقة بين فتيان الجامعة وفتياتها، وتعود المجتمع على قدر من الفساد الخلقي.

وخرجت المرأة من بيتها للعمل فتفسخت الروابط الأسرية و لم يعد لها معنى، فالزواج رباط ثقيل يقلل من حرية الرجل والمرأة، فلم لا يتم الاتصال بينهما دون حاجة لهذا الرباط الثقيل، ويتم الانفصال في أي وقت، هذه هي ظروف الحياة الجديدة ومتطلباتها.

من أجل ذلك "طفح" الجنس.. في الشارع والغابة والنادي والملعب والمرقص، والقصة

والمسرح والسينما، وفي المجلة والصحيفة اليومية فضلاً عن المجلة المخصصة للصور العارية والإثارة الجنسية، ووصل إلى درجة التهتك والحيوانية التي يتعفف عنها بعض أنواع الحيوان!

ومن مظاهر التغير الاجتماعي في أوربا ظهور القوميات، فبعد أن جمعت النصرانية الأمم الأوربية تحت لواء الدين وجعلت من العالم النصراني عشيرة واحدة، كان الخروج على الكنيسة هو الباعث للقوميات من جديد، وكان الدين والقومية ككفتي ميزان كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى، ومعلوم أن كفة الدين لم تزل تخف كل يوم، ولم تزل كفة منافسته راجحة، وقد أشار إلى هذه الحقيقة التاريخية الفاضل الإنجليزي المعروف "لورد لوثين Lord Lothian" السفير البريطاني السابق في أمريكا في خطبته التي ألقاها في حفلة جامعة عليكرة في يناير سنة ١٩٣٨م: "لما قضت حركة لوثر التي تدعي حركة إصلاح الدين على وحدة أوربا الثقافية والدينية، انقسمت هذه القارة في إمارات شعبية مختلفة، أصبحت منازعاتها ومنافساتها خطرًا خالدًا على أمن العالم".

وكان نتيجة الانحطاط الديني، وانخفاض مبادئ الدين والأخلاق، رجحان كفة الوطنية والقومية؛ يقول "لورد لوثين" في نفس هذه الخطبة: "إن الدين الذي هو المرشد اللازم للإنسان، والوسيلة الوحيدة لحصول الغاية الخلقية، والشرف المعنوي للحياة البشرية، كان نتيجة الانحطاط في سلطانه أن فتن العالم الغربي بمذاهب سياسية تقوم على أساس اختلاف الأجناس والطبقات، وآمن -بتأثير العلوم الطبيعية- أن الرقي المادي هو الغاية العليا، والوطر الأكبر، ولا يزال يزيد هذا الأمر في مشاكل الحياة وأثقالها وتكاليفها، وكان من نتائج ذلك أيضًا أنه صعب على أوربا أن توفق بين روحها وحياتها توفيقًا ينقذها من القومية، داهية هذا العصر الكبرى" اهـ[1].

---

(١) انظر العلمانية- (ص١٤٠) ومواضع متفرقة- مذاهب فكرية معاصرة- (ص١١٩) وما بعدها، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- (ص٢١١-٢١٢).

٥-التغير السياسي في العالم:

فزعت أوربا عندما سقطت القسطنطينية في يد المسلمين، وازداد فزعهم بتوغل المسلمين في أوربا ووصولهم لأسوار فيينا، فعمل الغرب على تجميع قوتهم لمجابهة تلك القوة الإسلامية، وبدلاً من المواجهة المباشرة مع المسلمين استخدم الأوربيون أسلوب قص الأجنحة، وهذا الأسلوب يعني أنهم استداروا حول العالم الإسلامي واحتلوا أطرافه فيما يسمى بعملية الاستكشافات الجغرافية، وتركوا مواجهة المسلمين في مركز ثقلهم، بل حاربوهم على أطراف دولتهم لضمان انعدام القوة.

وقد ذكرنا سابقًا الثورة الفرنسية التي حولت وجه أوربا السياسي، فبعد أن كانت ملكية تخضع لسلطان الكنيسة أصبحت جمهورية لا دينية، مشبعة بالحقد على الكنيسة ورجالها، والدولة وبطانتها حتى قيل أثناء الثورة: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس.

وبعد ذلك ازدادت القوة العسكرية الأوربية والتي قامت على إثرها -ببداية عهد الاستعمار- الموجة على قلب العالم الإسلامي، فبدأت بالحملة الفرنسية على مصر، ثم تلتها الحملات العسكرية على معظم الدول العربية والإسلامية، ولم ينصرم القرن التاسع عشر الميلادي حتى سقطت معظم الدول العربية والإسلامية في قبضة الاستعمار الأوربي.

ولكنه نتيجة للصراعات الفكرية التي كانت تموج بها أوربا، وظهور القوميات، واختلاف المصالح والسياسات قامت الحرب العالمية الأولى، والتي ترتب عليها تشكيل جديد للخريطة العالمية؛ حيث تم إسقاط الخلافة العثمانية وتفتيتها إلى دويلات واقعة تحت الانتداب الأجنبي، وتغير ميزان القوة الأوربية؛ حيث ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية كقوة أخذت مكانتها على الساحة الدولية، وقد ظهر ذلك جليا بعد الحرب العالمية الثانية؛ وظهرت قوتان جديدتان هما الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية، وكل قوة تُدعِّى لمذهب خاص بها، وإن كان المذهبان في التحليل النهائي لا يخرجان عن مجمل الفكر الأوربي العلماني.

فأصبح هناك معسكر اشتراكي، ومعسكر رأسمالي، وكل يريد فرض سيطرته على

العـــالم، سواء بإيجاد العملاء من الحكام، أو إسقاط الحكام الوطنيين، أو أي وسيلة سواء أكانت أخلاقية أم لا.

وفي التـــسعينات من القرن الماضي سقطت الدولة الشيوعية، و لم يبق على الساحة إلا الولايات المتحدة التي سيطرت على كل المنظمات الدولية بما في ذلك مجلس الأمن والأمم المتحدة، وأصبح العالم واقعًا تحت قوة واحدة تعتبر نفسها شرطي العالم.

وبعـــد أحـــداث الحادي عشر من سبتمبر ظهرت رعونة هذه الدولة؛ حيث احتلت أفغانستان والعراق بدعوى محاربة الإرهاب، وتهدد سوريا بدعوى تدخلها في شئون لبنان، وهـــي إذا كانت تهدد سوريا لتدخلها في شئون لبنان، فها هي تتدخل في شئون السودان الداخلية إثر أزمة دارفور.

و لم يكفهـــا ذلـــك بـــل تتدخل في شئون الدول العربية جميعًا مطالبة إياهم بإصلاح أنظمتهم، بل وفرض نظام جديد يسمى "الشرق الأوسط الكبير".

٦-التغير الاقتصادي:

كـــان الاقتـــصاد الأوربي يقوم على الإقطاع؛ حيث أقرت الكنيسة النظام الإقطاعي الـــسائد، بل أصبحت مؤسسة من مؤسساته الثابتة، وأقرت الاضطهاد الفظيع الذي كان يتعـــرض له أرقاء الأرض رغم تنافيه مع تعاليم الإنجيل، ولكنها في مواقف أخرى كانت أكثر تشددًا لاسيما في مسألة "الربا".

ويـــرى "جورج سول" أن الكنيسة كانت تحرم الربا لسبب نفعي بالإضافة إلى الدافع الديني، فيقول "سول": هذا التأكيد بفساد الربا وشروره ليس فكرة مجردة فحسب، ولكنه كما هو الشأن بالنسبة إلى معظم المذاهب الأخرى البارزة في ذلك الحين وفي عصرنا هذا كان يحقق غرضًا هامًا حينذاك لأولئك الذين عملوا على ترويج الفكرة.

لقد شعرت الكنيسة وحلفاؤها الإقطاعيون في العصور الوسطى -وبحق- أن ثمة خطرًا يهـــدد سلامتهم وسلطانهم نتيجة نمو الرأسمالية، وإن لم يطلق عليها أحد هذه التسمية، إن اســـتنكار الربا كان من الأغراض الدالة على أن وسائل جديدة في الإنتاج والتبادل بدأت تعمل على تقويض دعائم النظام الإقطاعي اهـــ.

وعلى أية حال فإن اقتصاد القرون الوسطى لم يكن يستطيع التملص من اتباع التعاليم الكنسية التي كانت جزءًا من النظام الأخلاقي المسيحي، كما أنه كان -في الوقت نفسه- خاضعًا ومقيدًا بالأعراف الإقطاعية السائدة، ولذلك كان حتمًا أن ينهار بانهيار الكنيسة والإقطاع.

ثم جاء المذهب الرأسمالي الذي دعا إليه آدم سميث ومالتس وريكاردو، وهو مذهب قائم على المنفعة المادية؛ حيث يتم تحقيق أكبر ربح بأية وسيلة، وهذا الاقتصاد عموده الفقري الربا والاحتكار.

وفي مقابل تطرف الرأسماليين نحو الفردية تطرفت طائفة أخرى فاتجهت اتجاهًا جماعيا لا يقيم للفرد وزنًا إلا من جهة كونه مسمارًا في الآلة الاجتماعية، وهذه هي اشتراكية ماركس التي آمنت إيمانًا أعمى بأن القضاء على الملكية الفردية وقبض الدولة على وسائل الإنتاج كفيل بتحقيق الجنة الأرضية وإزالة كل الشرور والمساوئ التي يعج بها التاريخ، ولا تستثني الشيوعية من ذلك شيئًا حتى "المرأة" فإن الشيوعية الجنسية والإباحية المطلقة هدف صريح من أهداف الشيوعية في كل مكان؛ فالزواج ينتج الأسرة، والأسرة في نظرهم أعدى أعداء المجتمع اللاطبقي؛ لأنها تحتم على المرء أن يتملك ويدخر، والملكية الفردية تقليد إقطاعي استغلالي إن لم يتم القضاء عليه انتكس المجتمع إلى طور تاريخي أدنى![1].

وحدث صراع بين الشيوعية والرأسمالية انتهى هذا الصراع بسقوط مروع للشيوعية، واستبدت الرأسمالية الغربية باقتصاد العالم؛ حيث تستغل الدول الفقيرة لتوفير الرخاء والرفاهية للدول الغنية، بما يسمى باتفاقية الجات التي تفتح أسواق الدول الفقيرة أمام غزو بضائع ومنتجات الدول الغنية؛ حيث لا تستطيع الدول الفقيرة منافسة هاتيك الدول، فتكون النتيجة الحتمية لتحرير التجارة العالمية أن يزداد الغني غنًا، والفقير فقرًا، ولا مجال هنا لعاطفة الرحمة أو الشفقة التي يتشدقون بها، فعجلة المصلحة والمنفعة تطحن كل من

---

(١) انظر العلمانية- (ص٢٦٠) وما بعدها.

يقف أمامها.

ومن أبرز المواقف المدللة على ذلك الغزو الأمريكي لدولة العراق؛ حيث ادعت امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل فقامت بحرب شعواء أسقطت على إثرها نظام صدام حسين، ثم أحكمت سيطرتها على حقول البترول العراقية لتأمين مصادر الطاقة اللازمة لعمل مصانعها.

وهنا تتكشف الدوافع الحقيقية للحرب الأمريكية على العراق:

١-محاربة الإسلام تحت مسمى "الضربات الاستباقية".

٢-إزالة القوى المنافسة لإسرائيل في المنطقة.

٣-تأمين مصالحها الاقتصادية في المنطقة.

ب-المؤثرات الداخلية:

يبدو أن العالم الإسلامي في لحظة انعدام الثقة بالذات، وغفلته المستبدة به نسي أنه يملك مقومات النجاح من موارد بشرية واقتصادية إلى جانب موقعه الذي يتوسط العالم، وفوق هذا وذاك امتلاكه لمنهج رباني يحث أتباعه على الجمع بين الدين والدنيا ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾[1].

لقد أفاق العالم الإسلامي من سكرته فوجد أن ميزان القوة في يد الغرب، فاختلت الموازين العقلية عنده وفقد اتزانه، ولم يكن قادرًا على اختيار الطريق السليمة، بل كانت عنده القابلية للاستعمار والغزو نتيجة لهذا الانهزام النفسي الذي سيطر عليه وأفقده صوابه.

ونحن في عرضنا للمؤثرات الداخلية لا نريد أن نجلد الذات أو أن نلهب ظهورنا بسياط التقصير والتخلف والرجعية والانهزامية، ولكن لكي نعرف مواطن الخلل لنتمكن من العلاج:

---

(١)القصص:٧٧.

١-التغير العلمي:

حـــدث انفـــصام في الشخـــصية الإسلامية؛ حيث ظنت أن العلم الممدوح هو العلم الشرعي فحسب، وطرحت العلوم الدنيوية: الفلك، الكيمياء، الفيزياء، الهندسة...إلخ، مع أن الإســـلام ديـــن ودنيا، فقد كان الرسول نبيا وقائدًا عسكريا ورئيس دولة..إلخ، فلو كانت دعوة الإسلام دعوة قاصرة لجلس رسول ﷺ في المسجد يعلم الناس، ولم يكن يعنيه بناء الدولة الإسلامية وتوطيد أركانها.

المهـــم أن هذا الانفصام أثر على حال العالم الإسلامي روحيا وماديا، فنشأت البدع والخـــرافات العقدية في الدين، وتخلف المسلمون في جميع النواحي العلمية، فلم تعد هناك اختـــراعات أو اكتـــشافات أو نظريات علمية، وكل ما هنالك ما هو إلا اجترار لعلوم السابقين دون إضافة تذكر.

وأثـــناء هذا الجمود المطبق آفاق المسلمون على صفعة قوية من الغرب الناهض؛ حيث هـــاجم الفرنسيون بقيادة نابليون مصر بجيش مسلح بأحدث الأسلحة إلى جانب وجود علماء ومهندسين وكيميائيين..إلخ.

نعـــم لم يـــتمكن الفرنسيون من مصر، ولكن ما حدث يمثل أول احتكاك مباشر مع الغـــرب مـــنذ الحروب الصليبية، هنا وجد المسلمون أنفسهم في حاجة لأن يستفيدوا من الغرب، والعجب أن الغرب يمثل خطرًا على العالم الإسلامي بنواياه وأهدافه الاستعمارية، ومـــع ذلك هو الذي بيده مفاتيح التقدم العلمي، وقد غض المسلمون الطرف عن الخطر الغـــربي المتمـــثل في أهدافه الاستعمارية ورمي بنفسه في أحضان الغرب متقبلاً أن يصبح تلميذًا للغرب؛ فكان "اتصال الإسلام بالحضارة الغربية في هذه المرحلة محصورًا في الجانب المـــادي الآلي مـــنها، أو كذلك أريد له أن يكون، ولم يكن يستهدف أصحابه إلا وصل المسلمين بأسباب القوة؛ لكي يكونوا أندادًا لأعدائهم...

إلى هـــذا المـــدى، وفي هـــذه الحدود، ولهذا الهدف السليم، لم يكن هناك مجال لقيام تعـــارض بـــين الإصلاح وبين الإسلام؛ لأن الأمر كان بعيدًا عن أن يمس نظمه أو قيمه، ولكـــن الأمـــور لم تـــسر على ما أريد لها أن تكون؛ فمع النظم الحربية الجديدة تسربت نظـــريات سياسية وعناصر حضارية وثقافية غربية. فقد استلزمت الإصلاحات العسكرية

الجديدة إصلاحًا في نظم التعليم وفي برامجه، واستلزمت ترجمة كثير من الكتب الأوربية في مختلف العلوم والفنون، واستلزمت استقدام خبراء ومدرسين من الأجانب، كما استلزمت إرسال بعوث علمية إلى مختلف المعاهد الأوربية.

على أن بعض حكام المسلمين كان يتجاوز بالإصلاح حدود الاحتياجات الحربية والتنظيم الصناعي والاقتصادي والإداري، ويعملون على أن تصبح بلادهم جزءًا من العالم الغربي...

ومع حرص بعض المصلحين من ولاة أمور المسلمين على أن يجري الإصلاح في حدود الخبرات الفنية التي تتصل بالجيش والصناعة والزراعة والاقتصاد والتنظيم الإداري، فإن الأمور قد تجاوزت الحدود التي أرادوها وقدروها"[1].

وبعد ذلك جاء الاستعمار فوظف كل جهوده لتفريغ عمليات النهضة العلمية من مضمونها، بل ومحاولة إجهاض أي نهضة علمية سليمة وحقيقية، وذلك باستخدام المستشرقين الذين عملوا على إشغال المسلمين بقضايا تافهة لا تمثل صلب النهضة العلمية؛ فإذا هم يهاجمون الدين الإسلامي باتهامه بأنه سبب تخلف المسلمين، وأن لغتهم العربية لا تصلح لأن تكون لغة العلم، إضافة إلى عملهم الدائب على إخراج المرأة من عفتها وطهارتها تحت مسمى قضية تحرير المرأة، وكأن الهجوم على الدين واللغة والمرأة هي مرتكزات النهضة.

ولم يكتف الاستعمار باستغلال المستشرقين لوأد مشروعات النهضة الحضارية الإسلامية، ولكنهم وزعوا أذيالاً لهم في أرض المسلمين يعملون على نشر روح الانهزامية والتبعية للغرب، فيفسدون ولا يصلحون، مع أنهم يُدَعى لهم على أنهم دعاة التقدمية وأعداء الرجعية، وهم المفكرون الأصلاء التنويريون، ولاشك أنهم الذين ينطبق عليهم قول رسول الله ﷺ: "دعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها.

---

(١) د/محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الخامسة- (١٤٠٢هـ-١٩٨٢م)- (ص١٦-١٧)باختصار.

قلت[1]: يا رسول الله، صفهم لنا. فقال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا"[2].

إننا في محاولة اللحاق بركب التقدم العلمي والتقني خسرنا كثيرًا من قيمنا ومبادئنا، وبقدر ما استفدنا من الغرب خسرنا من ديننا؛ لأننا أخطأنا الطريق الصحيحة، فإنه لا تعارض بين العلم والدين في الإسلام، ولم يحدث أن كانت هناك عند المسلمين محاكم تفتيش تحاكم العلماء وتصفهم بالهرطقة، ثم تأمر بإحراقهم أحياء.

فالإسلام حث على النظر وأمر أتباعه بذلك، والقرآن فيه من الشواهد ما يغني عن الحصر، وتاريخ المسلمين الأوائل خير شاهد على ذلك.

والمطلوب منا أن لا ننسى إسلامنا، بل نزداد به تمسكًا، وأن نستفيد من الغرب علومه وتقدمه المادي شريطة أن لا يؤثر ذلك على عقيدتنا.

والأمثلة كثيرة على نهضة بعض الدول مع تمسكها بأدياها الوضعية أو المحرفة، فهذه اليابان تخرج من الحرب وهي خاسرة لكل شيء إلا العزيمة والإصرار، فنجحت في سنوات قلائل أن تنافس من جديد، بل وتغزو جميع الأسواق العالمية بمنتجاتها.

٢-التغير السياسي:

كانت السمة الغالبة على العالم الإسلامي أنه كتلة واحدة من أقصاه إلى أقصاه إلا في بعض الفترات التي كانت تتغير فيه تلك السمة.

فمنذ عصر الراشدين والدولة الإسلامية كلٌ لا يتجزأ، ثم تلتها الدولة الأموية وهي على هذا الحال، ثم جاءت الدولة العباسية وهي تحكم من الصين شرقًا حتى المحيط الأطلسي غربًا، وذلك لاستقلال الأمويين بالأندلس في أوربا، وحين ضعفت الدولة العباسية استقلت بعض الدول عنها استقلالاً فعليا ولكنها كانت تخضع لها اسميا، فهي تحت ظل الخلافة وإن استقلت عنها بالحكم، وجاءت الدولة الفاطمية (العبيدية) أثناء

---

(١) أي: حذيفة بن اليمان.

(٢) أخرجه البخاري في "المناقب"، باب: علامات النبوة في الإسلام- (٣٦٠٦)، ومسلم في "الإمارة"، باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين (١٨٤٧).

الخلافة العباسية كعرض زائل، ثم جاءت الدولة العثمانية التي أدت ما عليها حتى أصابها ما أصابها على يد الذئب الأغبر كمال أتاتورك الذي ألغى خلافة المسلمين التي جمعت شملهم على طول تاريخهم، ورغم بعض السلبيات التي كانت تعتريها فإن وجودها لا يستغنى عنه المسلمون بحالٍ من الأحوال؛ لذا عمل الغرب على ضرب المسلمين ضربة تقصم الظهور، فكانت "الفجيعة قاسية على قلوب المسلمين.. ذرفوا معها الدموع، وحاولوا أن يبذلوا الدماء فلم يستطيعوا.. وقام القهر السياسي الداخلي في تركيا متمثلا في حملات من القمع الدموي، وقام قهر الاحتلال العسكري في سائر البلاد الإسلامية، وبخاصة في مصر والهند.. حائلاً دون تحرك إيجابي لإنقاذ الخلافة أو إعلائها في مكان آخر"[1].

وكانت الدول الإسلامية قبل سقوط الخلافة بقليل واقعة تحت سيطرة الاحتلال الأجنبي، وعمل الاستعمار على بث الفرقة بين المسلمين ببعث النعرات الجاهلية كالفرعونية بمصر، والفينقية بسوريا ولبنان، والطورانية في تركيا، ولأول مرة في تاريخ المسلمين توضع الحدود بين الدول الإسلامية، وفي ظل الاحتلال كانت المحاربة للإسلام على أشدها، فكانوا يأملون أن ينتصر المسلمون، وجاءت أقوالهم مؤكدة لذلك في كثير من المؤتمرات، يقول الحاكم الفرنسي في الجزائر في ذكرى مرور مائة سنة على استعمار الجزائر: "إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن، ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم"[2].

ولقد ضرب الاستعمار كل الحركات الإسلامية، وأفسحوا المجال للحركات المضادة للدين، ثم اختفى الاحتلال العسكري للبلاد، "وقد كان هذا الاختفاء راجعًا في بعض الأحيان إلى أسباب اقتصادية، لكنه في رأينا راجع في الأرجح إلى وجود البديل الذي يوفر

---

(١) المستشار الدكتور علي جريشة: الاتجاهات الفكرية المعاصرة- دار الوفاء- المنصورة- الطبعة الثالثة- (١٤١١هـ-١٩٩٠م)- (ص٣٦-٣٧).

(٢) جلال العالم: قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام وأبيدوا أهله- مكتبة التابعين- القاهرة- (ص٣٨).

الأنفس والأموال التي كان يقتضيها بقاء الاحتلال الأجنبي، وكثيرًا ما يقترن اختفاء الاحتلال بهالة من البطولة تضفى على النظام الجديد"[1].

وقد ظهرت في المنطقة سلسلة من الانقلابات العسكرية التي ساعدتها استخبارات الدول الاستعمارية، وذلك لإجهاض أي توجه إسلامي في الحكم، "وكان أول انقلاب عسكري ابتليت به المنطقة هو عام ١٩٠٨م في تركيا، وكان أول انقلاب بعد المرحلة الجديدة هو انقلاب حسني الزعيم في سوريا ١٣٦٨هـ-١٩٤٩م، ثم تلته سلسلة انقلابات كان أهمها وأخطرها الانقلاب العسكري في مصر عام ١٩٥٢م- ١٣٧٣ هـ"[2] الذي أطاح بالإخوان المسلمين، وحولوا مصر إلى دولة اشتراكية، وكذلك الحال في تركيا عندما وصلت بعض الأحزاب الإسلامية إلى مدة الحكم لم يسع القائمين على المبدأ العلماني إلا أن يقوموا بانقلاب أزال هذه الأحزاب مثلما حدث مع حزب الرفاه الإسلامي بقيادة نجم الدين أربكان.

ويلاحظ على هذه الانقلابات:

"أ-أنها أدت من ناحية الغزو الفكري للعالم الإسلامي "خاصة" أضعاف ما أدته جيوش الاحتلال الأجنبية؛ إذ أعطت القدوة السيئة من قادتها، فضلاً عن أنها مكنت للغزو الفكري خلال وسائل الإعلام وبرامج التعليم، وأنظمة الحكم.

ب-أنها مكنت لدولة اليهود من قيام، ثم مكنتها من التوسع "في حربي ١٩٥٦م-١٩٦٧م"، وأخيرًا أضفت عليها الشرعية بعقد الصلح معها، وهو أمر كانت تهدف له دولة اليهود خلال الثلاثين عامًا المنصرمة و لم يكن هناك من يتشجع للإقدام عليه.

جـ-أنها حاربت الحركات الإسلامية بأقسى مما حاربها به جيوش الاحتلال الأجنبية، مع استخدام تمثيليات محاولة الاغتيال، أو التآمر، أو الاتصال بدولة أجنبية... و"طبخ" القضايا أو تلفيقها، والإلقاء بزعماء الحركات الإسلامية وأبنائها في السجون والمعتقلان مع

---

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة- (ص٣٩).

(٢) السابق- (ص٤٠).

ما يتعرضون له من تعذيب وتقتيل وتشريد"[1].

ومـــن هذه الأحزاب التابعة للغرب والتي عملت على التغير السياسي لوجه العالم الإسلامي

الأحزاب الشيوعية[2]:

أســـست الشيوعية أحزابا لها في كل الدول العربية والإسلامية تقريبا، فنجد لها أحزابا في مصر.. سورية.. لبنان.. فلسطين.. والأردن.. تونس وغيرها.

ومـــن هـــذه الأحـــزاب: الحزب الديمقراطي الكردستاني، وهو حزب قومي علماني اشتراكي يدعو إلى إنشاء دولة كردية في منطقة كردستان بعد توحيدها.

ففي عام ١٩٢٧م توحدت جميع المنظمات الكردية في حزب (خويبون) الذي أسسه عدد من المهاجرين الأكراد المقيمين في الخارج.

وللحـــزب توجه اشتراكي ماركسي بالإضافة إلى التوجه القومي العرقي، ويعد نضاله جزءا من نضال الحركة الديمقراطية للبروليتاريا "طبقة العمال والفلاحين".

وكان زعماؤه دائما يعلنون عن ارتباط حزبهم برباط الصداقة مع الاتحاد السوفيتي قبل انهياره، والمعسكر الاشتراكي قبل زواله.

ويستخدم الحزب المصطلحات الشيوعية في كتاباته وتوجيهاته مثل: الحزب التقدمي، الطبقة العاملة، طبقة الفلاحين، الطبقة البرجوازية، البروليتاريا... إلخ.

القومية العربية:

حركة سياسية فكرية متعصبة، تدعو إلى تمجيد العرب، وإقامة دولة موحدة لهم، على أســـاس مـــن رابطة الدم والقربى واللغة والتاريخ، وإحلالها محل رابطة الدين. وهي صدى للفكر القومي الذي سبق أن ظهر في أوربا.

وقد ظهرت بدايات الفكر القومي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

---

(١) السابق- (ص٤٠-٤١).

(٢) استفدنا هنا من الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة- مانع الجهني.

متمثلة في حركة سرية تألفت من أجلها الجمعيات والخلايا في عاصمة الخلافة العثمانية، ثم في حركة علنية في جمعيات أدبية تتخذ من دمشق وبيروت مقرا لها، ثم في حركة سياسية واضحة المعالم في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس سنة ١٩١٢م.

هذا وقد ظلت الدعوة إلى القومية العربية محصورة في نطاق الأقليات الدينية غير المسلمة، وفي عدد محدود من أبناء المسلمين الذين تأثروا بفكرها، ولم تصبح تيارا شعبيا عاما إلا حين تبنى الدعوة إليها الرئيس المصري الراحل جمال عبدالناصر حين سخر لها أجهزة إعلامه وإمكانات دولته، ويمكن أن يقال: إنها الآن تعيش فترة انحسار أو جمود على الأقل.

ومن هذه الأحزاب القومية: الحزب القومي السوري، وهو حزب يدعو إلى القومية العربية، واعتبار الوطن السوري البيئة التي نشأت فيها الأمة السورية، والقول بأن النهضة السورية تستمد روحها وتاريخها السياسي والقومي من مواهب الأمة السورية، وقد اتخذ الحزب اسم "الحزب القومي الاجتماعي"، وشعاره زوبعة لها أربعة رءوس ترمز إلى: الحرية والواجب والنظام والقوة.

وفي هذه الآونة الأخيرة عاد الاستعمار من جديد للبلاد الإسلامية، فها هي أمريكا التي تحت مسمى محاربة الإرهاب تقوم بغزو أفغانستان، ثم العراق، وها هي تهدد السودان بفرض عقوبات عليه بشأن مسألة دارفور، وتهدد إيران بسبب مسألة محاولة امتلاكها للسلاح النووي، وتفرض عقوبات على سوريا...إلخ.

وتقوم أمريكا بمحاربة الإسلام في كل مكان، فقد جمدت أرصدة المنظمات الإسلامية بدعوى مساندتها وتمويلها للإرهاب، وتقوم بالضغط على الحكومات الإسلامية لمحاربة ما يسمونه بـ"الأصولية الإسلامية"، وفي هذه الموجة الجارفة يضيع الحق ويظهر الباطل، فالمقاومة الإسلامية في فلسطين والعراق إرهاب، وشارون وبوش ومن على شاكلتهما دعاة سلام وحرية...إلخ.

كل هذه الصور تمثل إلى أي مدى بلغ الضعف والوهن بالحكومات والأنظمة العربية والإسلامية، وأنها لا تملك من أمرها شيئًا.

٣-التغير الديني:

لقد وصل الحال بالمسلمين أن أصبح الإسلام مجرد مظاهر خارجية وتقاليد يحافظ على شكلها أكثر من المحافظة على مضمونها، وهذا هو الجمود بعينه؛ فالعقيدة الحية في القلوب تدفع أصحابها للعمل دون ملل أو كسل... العمل الجاد المثمر الذي يشع النور والهداية في جميع جوانب الحياة.. العمل الذي يحتسب صاحبها كل أعماله عند الله ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾[١].

هـذا الفهم هو الذي حمل الإسلام إلى الدنيا بأسرها، ولكن هذا الفهم أصابه الخلل وأصبح الإسلام محصورًا في بعض الشعائر والأوراد والأذكار.

وقد شارك الصوفية والفقهاء في تعميق هذا الخلل؛ حيث أشاع الصوفية بين الناس كره الدنيا والدعوة إلى اعتزالها وترك الجهاد بمفهومه الواسع، وحصره في جهاد النفس متمسحين بقول منسوب إلى النبي ﷺ يقول فيه -إثر عودته من غزوة من الغزوات: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"[٢].

فأصبحت غاية المسلم هي الدروشة، بأن يجلس في تكية من التكايا أو زاوية من الزوايا تاركًا العمل والكسب مدعيا أنه متوكل، وزاعمًا أن الأخذ بالأسباب ينافي كمال التوكل.

---

(١)الأنعام:١٦٢-١٦٣.

(٢) أخرجه البيهقي في "الزهد" من حديث جابر كما قال الحافظ العراقي في "المغني عن حمل الأسفار" (٢٥٦٧) وقال: "هذا إسناد فيه ضعف". وذكره العجلوني في "كشف الخفاء" وقال: "قال الحافظ ابن حجر في "تسديد القوس": هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن أبي عبلة". انتهى. وقال في "تخريج الكشاف": "هو من رواية عيسى بن إبراهيم عن يحيى بن يعلى عن ليث بن أبي سليم، والثلاثة ضعفاء، وأورده النسائي في "الكنى" من قول إبراهيم بن أبي عبلة أحد التابعين من أهل الشام" وقال شيخ الإسلام في "الفتاوى" (١٩٧/١١) "لا أصل له، ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله. وانظر "الضعيفة" (٢٤٦٠).

وزادت الطرق الصوفية وكثر أتباعها، وزاد الاعتقاد في الأولياء والمشايخ، وهذا انحراف خطير في العقيدة.

أما الفقهاء فقد كان التعصب لمذهبهم هو السمة الغالبة عليهم، وثارت بينهم المناوشات التي قد تصل إلى حد التشابك بالأيدي والاعتداء بالضرب، واستخدام السلطان لنصرة فريق على الآخر. هذا إلى جانب جمودهم على أقوال علمائهم، وإعطائها العصمة، واعتبار أن نصوصهم مقدسة، وهذا من التبلد العقلي الذي أصاب الفقهاء، ولم يكن جهدهم في المذهب إلا بكتابة الحواشي والشروح على متون كتب المتقدمين.

ومع أن العصر قد اختلف عن سابقه؛ لأن المجتمعات دائمًا في تطور في جميع النواحي، فإن الفقه لم يتطور مع المتغيرات، بل وأعلن الفقهاء غلق باب الاجتهاد، "وبذلك حدث لأول مرة في تاريخ المسلمين أن ضاقت دائرة الفقه الواقعي بل والافتراضي عن الإحاطة بأحداث الحياة كلها، وكان الذي ضاق -بطبيعة الحال- هو فقه المتون والحواشي، ولم تضق الشريعة نفسها وما كان لها أن تضيق.

يقول الشيخ محمد الغزالي: مع أن الزمن لا يقف، ومع أنه تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من فجور، ومع أن الجماعة الإنسانية تدخل في أطوار متباينة من ناحية العلاقات الدولية والأوضاع الإدارية والاقتصادية والسياسية، ومع ضرورة بقاء الدين مهيمنًا على توجيه القافلة السائرة، مع هذا كله فإن التفكير الإسلامي الفقهي توقف في أغلب ميادين المعاملات إن لم يكن جمد فيها كلها، وأغلقت أبواب الاجتهاد بضعة قرون حتى انكسرت أخيرًا تحت ضغط الحاجات الملحة، وصحب انكسارها فوضى منكرة في الفهم والتطبيق... اهـ.

والمؤسف أن الذي حصل أول الأمر هو أن باب الاجتهاد لم يفتح ولم يكسر بل استوردت القوانين الأجنبية الكافرة"[1].

استوردت تلك القوانين حينما تنكرنا لديننا، واتهمناه بالعجز، ولم يكن العجز منه

---

(١) العلمانية- (ص٥١٢-٥١٣).

ولكنه منا، وكما قيل:

وما لزماننا عيب سوانا نعيب زماننا والعيب فينا

ولو نطق الزمان لنا هجانا ونشكو ذا الزمان بغير ذنب

وأصلح ما نصف به حال الدين هو "الدين بين عجز أبنائه وكيد أعدائه"، نعم لقد ضغط الأعداء علينا حتى صرنا في ركابه، ولقد ثارت معركة بلا أرض؛ حيث حاول أذيال الغرب والمستشرقون من قبلهم أن يوهموا المسلمين أن التقدم مرهون بطرح الدين، كما ثار الغرب من قبل على الكنيسة، ونتيجة للطعن المستمر من قبل أعداء الدين ظهرت اتجاهات ثلاثة:

١-اتجاه طرح الدين خلف ظهره، وأعلن إلحاده.

٢-اتجاه آمن ببعضٍ وكفر بآخر، مثل من آمن بالصلاة والحج والصوم مع عدم إيمانه بتدخل الإسلام في شئون الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فالدين في القلب ولا مجال له في الحياة، والدين في المسجد ولا أثر له في خارجه، فالدين وظيفته مقصورة على الوعظ والتهذيب الخلقي فحسب.

٣-اتجاه إسلامي أصيل، رأى أن الإسلام دين شمولي، كما قال الله ﷻ: ﴿**يأيها الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**﴾[1].

على كلٍ فإن الاتجاهين الأولين هما اللذان كتب لهما الظهور بسبب الاستعمار، واستخدام المستشرقين الذين كان من أثرهم على المسلمين:

"١-بلبلة الأفكار وتشويه صورة الإسلام الصحيحة في عقول الكثيرين بالشبهات الزائفة، والأكاذيب الباطلة، حتى غاب الكثير من مفاهيم الإسلام الصحيحة عن أذهان غالبية المسلمين، وصاروا يحتاجون بشدة إلى تصحيحها.

٢-إخضاع النصوص الشرعية لأهواء الرجال وآرائهم، مما أدى إلى تحريف معانيها، مع تعمد إساءة فهمها، ونشر هذه المفاهيم الخاطئة بين تلاميذ المستشرقين.

٤-صرف المسلمين عن الجهاد في سبيل الله، ودفعهم إلى التصوف، وتشجيعهم على

---

(١) البقرة:٢٠٨.

التمسك به لما فيه من شغل النفس بغير الجهاد.

٥-الطعـــن في الكثير من مراجع الدين، من تراث أئمة المسلمين وكتبهم القيمة، والتي تعد أساسية لفهم الإسلام"[١].

وسيتم دراسة الاستشراق بالتفصيل في التغير الفكري.

من عوامل التغير الديني وبعض مظاهره:

التنصير:

ومـــن العوامل التي حاولت خلخلة عقيدة المؤمنين، وكان لها أثر في بعض الأماكن من البلدان الإسلامية التنصير؛ فقد كان همّ القائمين عليها إدخال المسلمين في النصرانية، فكثفوا مـــن جهـــودهم، ولكن باءت محاولاتهم بالفشل الذريع، ولكنهم لم ييأسوا ورضوا بزعزعة إيمان المسلم ببث الشبهات والأضاليل حتى يخرج جيل مسلم لا يعرف من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، ولا ضير إذن أن لا يدخل في النصرانية.

وكـــان لتحقـــيق هـــذا الهـــدف عدة محاور ارتكز عليها العمل الكنسي الموجه ضد المسلمين:

المحور الأول: تزييف العقيدة

وقـــف الغرب على نتيجة مهمة، وهي أن المسلم ينتصر بعقيدته السليمة، فكان "لابد إذن في نظـــر الغـــرب من تزييف هذه العقيدة، وامتصاص ما فيها من قوة وجهاد وإيمان، وكذلك بتحويل العقلية الإسلامية عن فهمها الصحيح لهذه العقلية بإثارة الشبهات حولها وحـــول فكـــرها الإسلامي، وذلك كمقدمة لتذويبها في الفكر الغربي باعتباره هو الفكر العالمـــي المسيطر، وبذلك يفقد العالم الإسلامي عقيدته ويستسلم للاحتواء الغربي ويسقط فريسة ذليلاً في يده"[٢].

---

(١) مذاهب فكرية في الميزان- (ص٢٣).

(٢) محـــدي عبدالمجيد الصافوري: سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية، دار الصحوة للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م،، ص(٣٣٢).

ومن الوسائل المستخدمة لهذا الغرض ما يسمى بـ"حوار الأديان"، وهي دعوة ماسونية تستغل النصارى في القضاء على الإسلام وإخضاع شعوبه، وتتخذ هذه الدعوة أسماء جذابة مثل: الدعوة للعالمية، أو التوفيق بين الإسلام والنصرانية، أو الدعوة إلى الإيمان الإبراهيمي، وأحيانا تحت مسمى حوار الأديان.

وتقوم فلسفة هذه الدعوة على زعم أن هناك قواعد مشتركة بين الإسلام والنصرانية، كالإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، وتكريم أم المسيح -عليه الصلاة والسلام- وأن الخلاف بين الإسلام والنصرانية خلاف شكلي وليس بجوهري.

بدأت هذه الدعوة من جانب النصارى منذ أوائل القرن العشرين، وتبنتها الصهيونية العالمية من خلال عقد العديد من المؤتمرات بدعوى التقريب بين الإسلام والنصرانية.

المحور الثاني: القضاء على القرآن ومحوه

يعلم الغرب النصراني علم اليقين أن "القرآن هو المصدر الأساسي لقوة المسلمين، وبقاءه بين أيديهم حيا يؤدي إلى عودتهم إلى قوتهم وحضارتهم.

-يقول المبشر وليم جيفور بالكراف: متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيدًا عن محمد وكتابه.

-ويقول المبشر تاكلي: يجب أن نستخدم القرآن، وهو أمضى سلاح في الإسلام، ضد الإسلام نفسه حتى نقضي عليه تمامًا.

يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح في القرآن ليس جديدًا، وأن الجديد فيه ليس صحيحًا"[1].

المحور الثالث: تدمير أخلاق المسلمين وعقولهم وصلتهم بالله وإطلاق شهواتهم

يحاول المنصرون وأذنابهم "صبغ الحياة الإسلامية الاجتماعية بالصبغة التحللية، وذلك من خلال إشاعة الفساد والرذيلة في أوساط المسلمين، وإتاحة الفرصة للشباب من الجنسين لأخذ نصيب وافر من الانحلال"[2].

---

(١) قادة الغرب يقولون، ص(٦٢-٦٣) باختصار.

(٢) وسائل المُنصرين www.aliman.org.

والأمـــثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، ولكننا نعرض صورة منها ليعرف القارئ إلى أي مـــدى بلغ تركيزهم على هذا الأمر، فبعد عودة روح الإيمان لألبانيا، وشعورهم "بأن لهـــم إخـــوة حـــول العالم جاءوهم يحملون إليهم بعض الخير المكنون في صدور وقلوب المسلمين العرب.

وفي الـــوقت الـــذي كانت المساجد تعمر وتشيد، والكتاتيب تنتشر، والحفاظ يزداد عـــددهم.. كانت مكاتب العون والمساعدة والمستشفيات والمستوصفات تفتتح والمرضى المساكين يجدون دواءهم عند أطباء عرب ومسلمين.

ولكـــن في بلد مثل ألبانيا لا يمكن للفاتيكان أن يسكت أو يصمت طويلا، فافتتح له سفارة وانتشرت جمعيات التبشير والتنصير لشعب بفطرته مسلم، لكن و لم لا؟ فالكل يريد قطعـــة من الكعكة الألبانية، والمساعدات الأوربية مرهونة بفتح الباب على مصراعيه أمام المبشرين.

كانـــت المعادلـــة صـــعبة؛ فالجمعيات الإسلامية لا تكاد تصل إلى الرقم ١٠، بينما الأخـــرى تتخطـــى ٢٠٠؛ أي أكثـــر من ٢٠ ضعفا، فشل الآخرون في تحويـــل قبلـــة الألـــبـــان، فلجـــئوا إلى حـــيلة أخـــرى: لماذا لا يستعينون برجال الأعمال من الطليان واليونانيين وغيرهم للاستثمار في اللحم البشري الألباني عبر فتح كباريهات وكازينوهات ومراقص، وعبر نشر الرذيلة التي قد تغري الكثيرين بمردودها.. وكما ازداد عدد المساجد زرعـــت تيرانـــا العاصمة وحدها بآلاف المقاهي والكازينوهات، وانتشرت الملاهي الليلية وصـــالات الديـــسكو، وعـــرفت ألبانيا الموضة والزي القصير والسهر والرقص والخمور والمافيا"[1].

هـــذا هـــو الدور الذي يقوم به المنصرون في ظل حماية الفاتيكان والدول الغربية، ولا يعجـــب المرء من ذلك إذا علم أن "الكنيسة تدار فيها الخمور وتقام فيها حفلات الرقص

---

(١) د.حمـــزة زوبـــع، كـــان يـــا مـــا كـــان.. ذكـــريات عاشق لبلاد الألبان، ٢٠٠٣/١٢/٢، www.islamonline.net بتصرف.

الماجن للمراهقين والمراهقات من أجل استهواء الشباب وجلبهم إلى النصرانية"[1].

والأمر غير متوقف على أهل المدن والحضر، بل "اهتم المبشرون بالريف الذي يتميز بمحافظته على التقاليد الإسلامية، مما يجعله أقل تقبلاً للإفساد، إلا أن تفشي الجهل والمرض وغلبة العوز على أبنائه يتيح لهم مناخًا مناسبًا، فأنشأوا المراكز الاجتماعية والصحية والمهنية وأسسوا المدارس والمحاضن المختلفة ونظموا برامج توطين البدو ومحو الأمية بين الكبار بهدف النفاذ إلى عقول أكبر قدر ممكن من طبقات وقطاعات الشعب"[2].

وهذا الفساد أصبح واقعا من خلال الإعلام المرئي والمقروء، الذي أصبح تجارته الرابحة هي عرض النساء بصور متهتكة، بدعوى التمدن والتحضر، إلى جانب القصص المتكررة عن العلاقة بين الرجل والمرأة التي تدور في فلك واحد ولا تتغير، مما يدلل على أنها مؤامرة مدروسة موجهة لبلوغ مأرب معروف.

"يقول صموئيل زويمر رئيس جمعيات التبشير في مؤتمر القدس للمبشرين المنعقد عام ١٩٣٥م: إن مهمة التبشير التي ندبتكم الدولة المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن هذا هداية لهم وتكريمًا.

إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالي تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية.

لقد هيأتم جميع العقول في الممالك الإسلامية لقبول السير في الطريق الذي سعيتم له، ألا وهو إخراج المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي مطابقًا لما أراده الاستعمار، لا يهتم بعظائم الأمور، ويحب الراحة والكسل، ويسعى للحصول على الشهوات بأي أسلوب، حتى أصبحت الشهوات هدفه في الحياة، فهو إن تعلم فللحصول على الشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإذا تبوأ أسمى المراكز

---

(١) وسائل المُنصرين www.aliman.org.

(٢) العلمانية، ص(٥٥٤).

ففـــي سبيل الشهوات... إنه يجود بكل شيء للوصول إلى الشهوات، أيها المبشرون: إن مهمتكم تتم على أكمل الوجوه"[1].

إفساد المرأة المسلمة

لماذا المرأة؟

يتـــبادر إلى أذهان الجميع لماذا التركيز على المرأة المسلمة من قبل الغرب ومن قبـــل أذنابـــــه المستغربين العلمانيين، والسر أن هؤلاء فطنوا لمكانة المرأة الأساسية ودورها في صـــنع الأمة، وتأثيرها على المجتمع؛ لذا أيقنوا أنهم متى ما أفسدوا المرأة ونجحوا في تغريبها وتـــضليلها، فحين ذلك تهون عليهم حصون الإسلام، بل يدخلونها مستسلمة بدون أدنى مقاومة.

يقول أحد المبشرين: كأس وغانية تفعلان في تحطيم الأمة المحمدية أكثر مما يفعله ألف مدفع، فأغرقوها في حب المادة والشهوات.

ويقـــول لاسي: إن التربية المسيحية أو تربية الراهبات لبنات المسلمين توجد للإسلام داخـــل حصنه المنيع -الأسرة- عدوًا لدودًا وخصمًا قويًا لا يقوى الرجل على قهره؛ لأن المـــسلمة التي تربيها يد مسيحية تعرف كيف تتغلب على الرجل، ومتى تغلبت عليه أصبح مـــن السهل عليها أن تؤثر على عقيدة زوجها وحسّه الإسلامي، وتُربي أولادها على غير دين أبيهم، في هذه الحالة نكون قد نجحنا في غايتنا من أن تكون المرأة المسلمة نفسها هي هادمة للإسلام.

ويقـــول أحدهم: وبما أن الأثر الذي تُحدثه الأم في أطفالها ذكورًا وإناثًا بالغ الأهمية، وبمـــا أن النساء هن العنصر المحافظ في الدفاع عن العقيدة، فإننا نعتقد أن الهيئات التبشيرية يجب أن تُؤكد جانب العمل بين النساء المسلمات على أنه وسيلة مهمة في التعجيل بتنصير البلاد الإسلامية.

لـــذا فقـــد اهـــتموا بفتح المدارس وشجعوا المرأة على الالتحاق بها فنادوا بضرورة

---

(١) قادة الغرب يقولون، ص(٦٥-٦٦).

التعليم ووضعوا لها برامج ومناهج تُبعدها عن دينها وتزرع في قلبها الحقد على الإسلام وأهله.

ومن شدة حرصهم على إفساد المرأة يقول أحدهم ويُدعى "جب": إن مدرسة البنات في بيروت هي بؤبؤ عيني.. لقد شعرت دائمًا أن مستقبل سوريا إنما هو بتعليم بناتها ونسائها.

وكان اهتمامهم بالمدارس الداخلية أشد، كذا اهتموا بإنشاء دور لإيواء الطالبات المغتربات؛ حيث يؤدي ذلك إلى انتزاعهن من بيئتهن المسلمة، ووقوعهن تحت سيطرة التبشير مباشرة، وقد قال المنصرون في ذلك: إن التبشير يكون أتم حبكًا في مدارس البنات الداخلية، مما يكون فيها من الأحوال المواتية والفرص السانحة؛ ولأنها تجعل الصلة الشخصية بالطالبات أوثق؛ ولأنها تنزعهن من نفوذ حياة بيتية غير مسيحية.

وتقول المبشرة آن ميليجان: في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشاوات وبكوات، وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي، وليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة.

كذلك وضعوا البرامج لها، وأكثروا من الاستعانة بالجمعيات النسائية في أمريكا.

وأعلن المؤتمر التنفيذي الذي عُقد في القاهرة عام ١٩٠٦م: أنه لا سبيل إلا بجلب النساء المسلمات إلى المسيح، إن عدد النساء المسلمات عظيم جدًا، لا يقل عن مائة مليون.. نحن لا نقترح إيجاد منظمات جديدة، ولكن نطلب من كل هيئة تبشيرية أن تحمل فرعها النسائي على العمل، واضعة نصب عينيها هدفًا جديدًا هو الوصول إلى نساء العالم كلهن من هذا الجيل.

وكان من جهود المنصرين إنشاء النوادي النسائية، ودفع الكتب الموجهة إلى المرأة المسلمة.

مما سبق يظهر لنا أن أعداء الإسلام يعلمون أن أقصر طريق يؤدي إلى حصن الأسرة في المجتمع الإسلامي، وبالتالي أسهل وسيلة لنقل الأفكار والفساد؛ لأن فساد المرأة يترتب

عليه فساد النشء والأسرة والمجتمع من حولها؛ فقد رأى المنصرون أن حجاب المرأة المسلمة يقف سدًا منيعًا دون إفسادها وبالتالي إفساد الأجيال المؤمنة، فبذلوا كل جهودهم لإخراجها من حرزها الذي لم يستطيعوا اقتحامه عليها، ولا شيء يعدل التعليم في ذلك.

كما سخروا أجهزة الإعلام المختلفة، وأنشأوا مراكز الفساد تحت ستار الترفيه أو الفنون للغرض نفسه.

ولقد كان من أفحش النتائج المدمرة، بسبب هذا الاختلاط، ظهور عادات وأخلاقيات جديدة في المجتمع، تحادّ الدين وتضاده، أو تتنافر مع ذوقه وآدابه في أقل الأحوال!

وكان ما أصاب المرأة المسلمة من ذلك بالذات هو المقتل الذي أسرع بالمجتمع نحو هاوية سحيقة ما لها من قرار!

فلم تكن الدعوة إلى ما أسموه "تحرير المرأة"! إلا مؤامرة رهيبة، على البيت المسلم لتدميره من الأساس، وتحويل مساره إلى وجهة مضادة لم تحدث قط في تاريخ المسلمين، حتى في أشد فترات ضعفهم أو فسادهم أو هزيمتهم، فكان من ذلك سفور المرأة المسلمة حتى العري والتهتك، ثم انحلالها الخلقي، واندفاعها الفجائي إلى خارج البيت لتزاحم الرجال في كل مجال، حتى مجالات الخلاعة والمجون والاستهتار!

لقد كانت المرأة في بلاد المسلمين -بلاشك- محتاجة إلى التعليم والثقافة والدراسة، لكن حين تولى قضيتها المفسدون في الأرض، قادوها إلى شر مهلك، وجعلوها نكبة النكبات على أمتها ودينها، وعلى مستقبل الأجيال التي تقوم بتربيتها، وقد استغل المفسدون حاجة المرأة، وغفلة الأمة، وجهل قادتها، أو فسوقهم عن أمر الله ﷻ، وليس أدل على ذلك من تعهد الطاغية إسماعيل "حاكم مصر" لملوك أوروبا بأن يطلق الحرية للمرأة المسلمة؛ لأنهم كانوا يدركون تمامًا خطورة هذا الأمر، وأهميته البالغة في إحداث الانقلاب الحاسم في مسار الإسلام، ثم كفالة امتداد آثار هذا الانقلاب لآماد بعيدة لا يبلغونها عن غير هذا الطريق، ولعل هذا هو عين ما لحظه المبشر المتعصب القس "زويمر" في

وصاياه للمبشرين؛ إذ يقول مركزًا آماله على هذا الجانب الاجتماعي الخطير:

تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم، ومن بين صفوفهم؛ لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها!

ينبغي للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة؛ إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين، وتحرير النساء[1].

المحور الرابع: تشكيك المسلمين بدينهم

"في كتاب مؤتمر العاملين المسيحيين بين المسلمين يقول: إن المسلمين يدّعون أن في الإسلام ما يلبي كل حاجة اجتماعية في البشر، فعلينا نحن المبشرين أن نقاوم الإسلام بالأسلحة الفكرية والروحية"[2]، وهذا يعملونه على نطاق واسع خاصة لدى القراء من أرباع وأنصاف المثقفين.

ومن أبرز القضايا التي يتكلمون عنها: قضية الرق، وتعدد الزوجات، وقضية الجهاد، وهذا الثلاثي لا تجد منصّرًا في الدنيا يتكلم عن الإسلام إلا ويبرز هذه الأمور الثلاثة ويحاول أن يشكك المسلمين في دينهم من خلالها[3].

ومن التغيرات الدينية الخطيرة ظهور الإلحاد في المجتمعات الإسلامية، والإلحاد مذهب فلسفي يقوم على فكرة عدمية أساسها إنكار وجود الله الخالق سبحانه وتعالى:

- فيدعي الملحدون أن الكون وجد بلا خالق.
- وأن المادة أزلية أبدية، وهي الخالق والمخلوق في نفس الوقت.

ويعد أتباع العلمانية هم المؤسسون الحقيقيون للإلحاد، ومن هؤلاء: أتباع الشيوعية، والوجودية، والداروينية، والفرويدية...إلخ.

---

(١) انظر: العلمانية، ص(٥٥٥)- الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص(١٤٣-١٤٤)- شبكة الحصن للعلوم النفسية والإنسانية www.bafree.net.

(٢) قادة الغرب يقولون، (٧١-٧٢).

(٣) انظر: وسائل المُنصرين www.aliman.org- الحوار الذي أجراه حميد المهدي مع د.حاتم العناية لمجلة العالم الإسلامي www.muslimworldleague.org.

ولقد انتشرت الحركات الإلحادية بين المسلمين في الوقت الحاضر، فبدأت بعد سقوط الخلافة الإسلامية؛ حيث صدر كتاب في تركيا عنوانه: مصطفى كمال للكاتب قابيل آدم يتضمن مطاعن قبيحة في الأديان وبخاصة الدين الإسلامي. وفيه دعوة صريحة للإلحاد بالدين وإشادة بالعقلية الأوربية.

وإسماعيل أحمد أدهم حاول نشر الإلحاد في مصر، وألف رسالة بعنوان: لماذا أنا ملحد؟ وطبعها بمطبعة التعاون بالإسكندرية قرابة سنة ١٩٢٦م.

أما إسماعيل مظهر فقد أصدر في سنة ١٩٢٨م مجلة العصور في مصر، وكانت قبل توبته تدعو للإلحاد والطعن في العرب والعروبة طعنا قبيحا معيدا تاريخ الشعوبية، ومتهما العقلية العربية بالجمود والانحطاط، ومشيدا بأمجاد بني إسرائيل ونشاطهم وتفوقهم واجتهادهم.

ولقد أسست في مصر سنة ١٩٢٨م جماعة لنشر الإلحاد تحت شعار الأدب، واتخذت دار العصور مقرا لها، واسمها رابطة الأدب الجديد، وكان أمين سرها كامل كيلاني.. وقد تاب إلى الله بعد ذلك.

وفي سنة ١٩٣٠م ألف إسماعيل مظهر حزب الفلاح ليكون منبرا للشيوعية والاشتراكية، وقد تاب إسماعيل إلى الله بعد أن تعدى مرحلة الشباب وأصبح يكتب عن مزايا الإسلام.

ومن الشعراء الملاحدة الذين كانوا ينشرون في مجلة العصور:

-الشاعر عبداللطيف ثابت الذي كان يشكك في الأديان في شعره.

-والشاعر الزهاوي ويعد عميد الشعراء المشككين في عصره.

الانحراف ومظاهره المختلفة (الإدمان- الإباحية...)

ومن المظاهر التي تدل على ضعف الدين في النفوس العبّ من الشهوات واتباع الأهواء، وما هلكت الأمم السالفة إلا بانحطاط أخلاقها وانحرافها عن الصراط السوي.

ومما يدلل على هذا الانحراف تزايد معدلات الإدمان بين الشباب بدءاً من التدخين وانتهاء بالسموم البيضاء والمشروبات الكحولية (الخمر)، ولا فرق في الانحراف بين الرجال

والنساء، فأصبحت اليوم وأنت تمر في الشوارع تجد النساء على المقاهي يدخن ويشربن النرجيلة، وما خفي كان أعظم.

وأعظم ما يُدعِّي للانحلال الديني وسائلُ الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة؛ فالبطل أو البطلة لا تكتمل ملامح شخصيته إلا بالتدخين، وشرب الخمور من العصرية والتحضر، والصداقة بين الرجال والنساء (المخادنة) شيء غير مستنكر.

فهذا السيل الجارف من الأفلام والمسلسلات وأغاني الفيديو (الكليبات) تؤكد مفهومًا واحدًا هو التحلل الديني والإباحية.

هذه السموم تفرض على المجتمعات الإسلامية فرضًا حتى تسللت هذه الأفعال غير الدينية والأخلاقية بين الشباب، وأصبح أمرًا غير مستنكر أن تجد فتى وفتاة في أوضاع غير أخلاقية في الحدائق والمتنزهات العامة أمام جمهور الناس دون حياء أو خجل.

وهذه الانحرافات تنشأ في عدم وجود دولة إسلامية ترشد الناس للحق والصواب، وأكبر دليل على ذلك أفغانستان التي احتلتها أمريكا وأزالت حكم طالبان، ما هي نتيجة هذا الغزو؟ لقد أصبحت أفغانستان من أكبر الدول في زراعة النباتات المستخدمة في المخدرات!!

موجة الإعراض والغفلة عن الدين:

ففي معترك الحياة وطحنها الناس في مادية قاتلة أصبح الكل مشغولا بتحصيل قوته، ومن أجل الحصول على المال يفعل المرء أي شيء ويمتطي أية وسيلة؛ فلا عبرة بحل الوسيلة أو حرمتها، فقد يعمل في حانات الخمور ولا يستحرم ذلك، وقد يتعاون مع المحتل الغازي -كما يحدث في العراق- ولا يهمه ذلك، ولا يتورع عنه.

وهذا كله من الغفلة المستحكمة على قلوب الناس، ولو أن الإيمان يملأ على المرء جوانحه لتعامل بما يمليه عليه هذا الإيمان ولو خالف من الأرض كلهم جميعًا، وصدق الذي قال: أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم على أرضكم.

وهذه الموجة من الإعراض والغفلة عن الدين لا تختص بفئة، فالفقير تجده يضرب بسهم في إعراضه عن الدين كالغني، وكل له طريقه في الإعراض أو الغفلة؛ فالفقير -

مـــثلا- قد لا يتورع عن أخذ الرشوة من الناس حتى يمضي لهم مصالحهم، وقد لا يتورع عن خيانة صاحب العمل، وكل ذلك بدعوى تربية أولاده، ونسي قوله تعالى: ﴿**وَلْيَخْشَ الَّـــذِينَ لَـــوْ تَـــرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا**﴾[1].

أمـــا الغـــني فقد يحتكر البضائع لكي ترتفع الأسعار على الناس فتتضاعف مكاسبه، ويضرب صفحًا بقول النبي ﷺ: "من احتكر فهو خاطئ"[2].

ظهور واستمرار التيارات الدينية المنحرفة:

ومـــن الآثـــار السيئة على المسلمين وجود بعض المذاهب المنحرفة إلى الآن، ومما يزيد الطين بلة توليها مقاليد الحكم، فالنصيريون المنتسبون للشيعة -وهم قلة- يحكمون الآن في بعـــض الـــبلدان العـــربية ويضربون بيد من حديد على أهل السنة، وشيعة إيران الذين يـــضطهدون أكثـــر من عشرة ملايين سني في دولتهم، ومحاولة نشر المذهب الشيعي بين السنة، وهناك من يتأثر بهم ويدخل في مهامه لا يعلم أن أحدًا نجا منها إلا من رحم الله.

وهـــناك التـــيارات الدينية الهدامة التي تتمسح في الإسلام، والإسلام منها براء؛ مثل البهائـــية والقاديانية التي تنتشر الآن في أوربا والتي كان مهد دعوتها كل من الهند وإيران، وقد حكم علماء المسلمين بأنهم ليسوا مسلمين لإبطالهم لشرائع الإسلام وادعاء زعمائهم النبوة، وأخذهم من اليهودية والنصرانية..إلخ.

٤-التغير الاجتماعي:

حـــدثت تطـــورات خطيرة في المجتمع المسلم، وظهرت هذه التغيرات إثر الاستعمار الغـــربي، وانفـــتاح المسلمين المبهورين على الغرب، وفرض الأوضاع الاجتماعية الغربية بالقوة على المسلمين.

ولقـــد بـــدأ هذا التغير السافر يطفو على السطح عندما انبهر بعض المسلمين بأخلاق

---

(١) النساء:٩.

(٢) أخرجه مسلم في "المساقاة"، باب: تحريم الاحتكار في الأقوات (١٦٠٥).

الغـرب الاجتماعـية رغـم أنهـا تنافي الدين الإسلامي؛ فالشيخ رفاعـة الطهطـاوي يـتحـدث عـن الرقص فيقول: "ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس وكأنه نوع مـن العـياقـة والـشلبنة؟ لا مـن الفسق، فلذلك كان دائمًا غير خارج عن قوانين الحياء، بخـلاف الرقص في أرض مصر فإنه من خصوصيات النساء لأنه لتهييج الشهوات، أما في بـاريس فإنـه نط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبدًا، وكل إنسان يعزم امرأة يرقص معهـا فـإذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية، وهكذا، وسواء كان يعرفها أو لا، وتفـرح النساء بكثرة الراغبين في الرقص معهن لسآمة أنفسهن من التعلق بشيء واحد، كما قال الشاعر:

ولا ألفـا خلـيل كـل عـام أيـا مـن لـيس يرضـيها خلـيل
فهـم لا يـصبرون علـى طعـام أراك بقـية مـن قـوم موسـى

وقـد يقع في الرقص رقصة مخصوصة بأن يرقص الإنسان ويده في خاصرة من ترقص معـه، وأغلـب الأوقات يمسكها بيده، وبالجملة فمس المرأة أيا كانت في الجهة العليا من الـبدن غير عيب عند هؤلاء النصارى، وكلما حسن خطاب الرجل مع النساء ومدحهن عد هذا من الأدب"[1].

فالـشيخ هنا مبهور بالغرب أيما انبهار، ثم جاء الاحتلال الذي هاجم الأخلاق بكلتا يديـه، وحـاول نـشر العهر والفجور عن طريق الملاهي الليلية والسينيمات والمسارح والمجـلات والجرائد، وبدأت البلاد الإسلامية تتسابق في السفور، وبدأت في مصر على يد قاسـم أمين كدعوة نظرية ثم حدث التطبيق على يد سعد زغلول الذي نزع النقاب عن وجـه اللائي استقبلنه إثر عودته من المنفى، وما سمي ميدان التحرير بذلك الاسم إلا لأنه شهد حادث نزع النساء للحجاب، وهذا من باب التلبيس على المسلمين.

وكـذلك الحـال في بلاد المغرب والشام وغيرها من البلدان، حتى بدا هـذا الأمـر كأنـه عادة مستقرة بين الناس ومن العادات الوافدة كذلك "البوي فرند" وهي اسـم

---

(١) العلمانية- (ص٦٢٥).

مستعار عن المخادنة، فتجد الدعوة للتقارب بين الفتيان والفتيات ومحاولة إبراز أن هذا الأمر طبيعي وضروري بين الشباب، والشاذ وغير الطبيعي هو الذي ينأى بنفسه عن هذه الأمور.

ولهذا انتشر الزواج العرفي بين شباب الجامعات، وأصبح ظاهرة يجب التوقف أمامها، ومحاولة دراسة أسبابه وطرق علاجه.

ونتيجة لانتشار الزنا تحت أسماء كثيرة؛ منها: الحب، العاطفة، الزواج العرفي! كثرت أولاد الزنا الذين امتلأت بهم الملاجئ والذين لا يجدون لهم عائلاً يحوطهم برعايته وحنانه وعطفه.

وما يحدث يؤكد انحسار التوجيه الأسري، وانعدام دور المؤسسات التربوية؛ فالأسرة لا قيام لها في حالة انتشار المخادنة أو ما يسمى بالزواج العرفي، فالكل يشبع نهمته كالبهائم دون تحمل لمسئولية، هذه المسئولية التي دعا الإسلام إلى تحملها فقالﷺ: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته؛ فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها..."الحديث[1].

وهذا كله يدفع بالنظام الاجتماعي كله إلى السقوط في مهاوٍ سحيقة من الرذيلة والانحراف؛ لأن النظام الاجتماعي قائم على الأسرة، والأسرة إن حدث فيها ما يخل بها فالخلل يصيب النظام المجتمعي بأسره.

ومما زاد في التفكك الأسري زيادة معدلات الطلاق التي تعبر عن مرض اجتماعي خطير، وهو عدم الاستقرار بين الأزواج، هذا الأمر الذي يترتب عليه ضياع الأولاد الذين لا يجدون القدوة الحسنة في الأبوين، مما يؤدي بهم للوقوع في براثن الشيطان.

وكذلك مما يدفع للتفكك الأسري اختلاط الرجال بالنساء دون ضوابط شرعية؛

---

(١) أخرجه البخاري في "الاستقراض"، باب: العبد راع في مال سيده (٢٤٠٩)، وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم في "الإمارة"، باب: فضيلة الإمام العادل (١٨٢٩).

حـــيث يـــؤدي الاخـــتلاط غير المنضبط بأن يفتن بعض الرجال بنساء أجنبيات من غير أزواجه، أو العكس، وتقام علاقات غير شرعية تؤثر على علاقة الرجل بزوجته الشرعية، أو علاقتها مع زوجها.

أما المؤسسات التربوية، فلم تعد تهتم بالتربية الإسلامية، بل تنقل المناهج الغربية وتملأ عقول الأولاد بكلام قد يخالف الدين في بعض الأحيان، وأصبح الاهتمام من المدرسين هو كيفـــية تحـــصيل الأمـــوال من الطلبة عن طريق الدروس الخصوصية، و لم يعد أمر التربية السليمة يهمهم.

وكـــذلك المناهج التي يتم بها التطوير!.... هذا التطوير الذي يحاول أن يكون نسخة شـــائهة من المناهج الغربية، بل تأتي المنح من بعض الدول الغربية باسم تطوير المناهج وهو في الحقيقة إفساد للمناهج، وبلغ من وقاحة دولة ما تدعي أنها دولة الديمقراطية والحرية في العالم أنها تحاول التدخل في شئون بلد إسلامي متهمة منهجه الإسلامي الأصيل بأنه يوجد تربة صالحة للإرهاب.

الـــصغار هـــم مادة الإسلام، والقيام على تربيتهم تربية إسلامية يبشر بالخير للإسلام والمسلمين، وإهمالهم يؤدي بالمجتمع الإسلامي إلى حافة الهوية.

ومـــن المؤامرات ضد المسلمين محاولة إلغاء الكتاتيب التي كانت الحصن الذي لاذ به المـــسلمون في الحفـــاظ على عقيدتهم سليمة نقية؛ فعن طريق التجربة ثبت أن الحضانة أو المدرســـة لا تقوم بالدور الذي تقوم به الكتاتيب في تحفيظ القرآن للناشئة، فضربها ضرب للمجتمع الإسلامي من قاعدته.

ومـــن المظاهر الاجتماعية السيئة المنتشرة في هذا العصر انعزالية أهل المدن بعضهم عن بعـــض، وانـــشغال كل واحد منهم بنفسه، وفقدان روح الجماعة؛ حيث أصبح الجار لا يعرف جاره الذي يسكن معه في عمارة سكنية واحدة، أو الذي يجاور مسكنه.

ومـــن هنا نشأت ظاهرة أن لا يتعرف الجار على حال جاره الذي قد يكون في أمس الحاجـــة للمـــساعدة، وكل ذلك على العكس من حال أهل الريف —وإن بدأت أمراض المـــدن تزحف إليهم- الذين ينتشر بينهم روح المحبة والتعاون وهذه الانعزالية تحول دون

انتشار الدعوة، التي تعتمد على المخالطة والاجتماع، وقد حث الإسلام على مخالطة الناس قال رسول الله ﷺ: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم"[1].

٥-التغير الاقتصادي:

الموارد في العالم الإسلامي متوفرة؛ حيث أنعم الله عليها بوفرة المواد الخام، وكثرة الأيدي العاملة، مع موقع جغرافي متوسط يتحكم في الطرق التجارية في العالم، ورغم هذا كله فإن المجال الاقتصادي في العالم الإسلامي ضعيف جدًا.

فالأموال كثيرة، والخبرة متوفرة، والأيدي العاملة متوفرة، والأسواق مفتوحة، كل هذه مقدمات هامة ورئيسة من مقومات النجاح، ولكن هناك سوء استغلال من الدول الإسلامية لهذه المقومات.

وكل هذه المقومات جعلت من العالم الإسلامي هدفًا للقوات الاستعمارية التي تبحث عن الرفاهية على حساب الآخرين، ولم يكن الاستعمار ليجلو عن تلك البلاد دون أن يجعلها تابعة له اقتصاديا، وأن يحول دون قيام نهضة اقتصادية حقيقية.

ولقد غدت الدول العربية مجرد سوق كبير للمنتجات الشرقية والغربية، وأصبح الاستيراد هو التجارة الرابحة، حتى أصبحنا نستورد سجادات الصلاة وفوانيس رمضان من الخارج.

والمنافسة الاقتصادية بين الدول قائمة على أشدها، والعرب والمسلمون خارج حلبة المنافسة؛ حيث يكتفون بأن يكونوا مستهلكين بدلاً من أن يكونوا منتجين، بل يمكن القول: إن الدول الكبرى تفرض علينا هذا الوضع فرضًا، والعجب أننا نرضخ لذلك، ونجد من بني جلدتنا من لا يرى مانعًا في ذلك، بل يؤيد ذلك حتى سمعنا أحدهم يقول: لأمريكا مصالح استراتيجية في المنطقة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢)، وصححه الشيخ الألباني في "الصحيحة" (٩٣٩).

أي خور وضعف وجبن هذا، بل أي عمالة تلك.

ومما يزيد الأمر سوءًا أن أصحاب رءوس الأموال يخافون استثمار أموال في مشروعات اقتصادية تفيد البلدان العربية والإسلامية، ولكنهم يفضلون أن يودعوا أموالهم في بنوك سويسرا وغيرها من بلدان الغرب، والتي يستفيد منها الغرب في مشاريعه، ولا يأخذ المودعون إلا الفتات فيما يسمى بالأرباح.

هذا إلى جانب أن الدول العربية والإسلامية مضطربة في خططها الاقتصادية؛ فتارة تصادر أموال الأغنياء تحت اسم التأميم وبعدها بفترة تبيع ما قد أممته سابقًا تحت اسم الخصخصة، بعد أن كانت تريد المركزية أصبحت تريد اللامركزية، وقد ترتب على ذلك أن زادت الهوة بين الفقراء والأغنياء، فالفقير نتيجة لغلاء الأسعار يزداد فقرًا، والغني يزداد غنًا؛ لأنه يساهم في المحافظة على تلك الهوة.

هذا إلى جانب تخلخل اقتصادنا الذي يتعامل بالربا، حيث يتحكم فيه اليهود، وما حدث لنمور شرق آسيا ليس منا ببعيد.

والعالم الإسلامي لا يملك خطة لتوحيد صفهم تجاه التكتلات العالمية، فأوربا وحدت عملتها لتكون كتلة اقتصادية واحدة أمام الولايات المتحدة واليابان والصين، وكل ما نفعله هو اتفاقات لا تطبق على أرض الواقع، ويعاني النظام الاقتصادي في الدول الإسلامية من الفساد الذي يعم كثيرًا من النواحي، فمثلا تجد انتشار الرشاوي، وكثرة الاختلاسات، وأخيرًا المستثمرون الذي يقترضون من البنوك أموالاً طائلة ثم يقومون بالهروب بهذه الأموال إلى الخارج.

وأخيرًا نجد أن بعض الموارد التي تنفعنا اقتصاديا هي من باب الوبال علينا، فنتيجة لوجود البترول في بلادنا الذي تقوم عليه الحركة الصناعية في الغرب، نجد أن لعاب أمريكا قد سال لتأمين مصدر الطاقة لمصانعها، فقامت بافتعال حرب على العراق واحتلت أراضيه، وأول ما فعلته هو تأمين الحقول النفطية من التخريب وتركت البلاد تعج بالخراب، وهذا يؤكد أن السبب وراء هذه الحرب سبب اقتصادي.

وكذلك تتربص هذه الأيام بالسودان، وتتدخل في شئونه الداخلية بدعوى إحلال

السلام في منطقة دارفور في غرب السودان، والله أعلم بما ستسفر عنه الأيام وتتمخض عنه الأحداث.

٦-التغير الفكري:

حدث تزلزل فكري شديد عند المسلمين؛ حيث استخدم الاستعمار إرهابا فكريا، وذلك باستخدام المستشرقين الذين عملوا بكل طاقتهم على التحقير من علوم المسلمين وإنتاجهم العقلي، وإثبات الأفضلية للغرب، ونجح المستشرقون في ذلك أيما نجاح، واستطاعوا أن ينقلوا النظريات والمذاهب التي يموج بها الغرب إلى بلاد المسلمين.

تلاميذ المستشرقين:

إذا كان المستشرقون نجحوا في نقل فكرهم -غثه وسمينه- إلينا، فإن أعظم مكاسب المستشرقين هو أنهم غرسوا نبتًا فاسدًا في الأرض الإسلامية؛ فقد "حرص المستشرقون على كسب الأنصار، واستخدام الأتباع لترديد مفترياتهم على الإسلام، وافتعال معارك حول عقائده وآدابه ومختلف أحكامه لتعميق المفاهيم التي يريدون فرضها، وترسيخها في الأذهان، وتوسيع دائرة الانتفاع بها"[1].

يقول الدكتور "أبو شهبة" عن مدى نجاح المستشرقين في التأثير على بعض المسلمين: قد نجح المستشرقون إلى حدٍ ما في التأثير في بعض الكتاب المسلمين في عصرنا الأخير فاقتفوا آثارهم فيما زعموا، ورددوا من دعاوى لم تقم عليها بينات، بل وزادوا عليها من عند أنفسهم.

وكل هؤلاء وأولئك نفثوا سمومهم باسم البحث والمعرفة وحرية النقد، والله يعلم والراسخون في العلم يعلمون، أن ما زعموا أبعد ما يكون عن العلم الصحيح والبحث القويم والنقد النزيه. اهـ.

لقد تركت الدراسات الاستشراقية الحاقدة آثارها على بعض المسلمين ممن تلقوا دراساتهم في الجامعات الغربية أو في جامعات بلادهم التي لم تكن هي الأخرى بمعزل عن

---

(١) أساليب الغزو الفكري، ص(٢٣).

تلك الدراسات التي تسربت إليها بشكل أو بآخر.

فأخذ أولئك المتأثرون والمبهورون بتلك الدراسات يرددون شبهات المستشرقين ويروجون لها بين المسلمين ويعتبرونها حقائق علمية مسلمًا بها، وأخذوا يعلمونها طلابهم من المسلمين، ويكتبون فيها المؤلفات، وبذلك يحققون آمال المستشرقين والمستعمرين.

أسباب انخداع بعض المسلمين بالمستشرقين:

أما الأسباب التي جعلت بعض المسلمين ينخدع بما كتبه المستشرقون عن الإسلام، وما أبدوا من آراء غريبة حول مختلف الجوانب فقد لخصها الدكتور "السباعي" بما يأتي:

١-جهلهم بحقائق التراث الإسلامي وعدم اطلاعهم عليه من ينابيعه الصافية.

٢-انخداعهم بالأسلوب العلمي -المزعوم- الذي يدعيه المستشرقون.

٣-وإما رغبتهم في الشهرة والتظاهر بالتحرر الفكري من ربقة التقليد كما يدعون.

٤-وقوعهم تحت تأثير "أهواء" و"انحرافات" فكرية لا يجدون مجالاً للتعبير عنها إلا بالتستر وراء أولئك المستشرقين والكاتبين. ا.هـ

أشهر الكتاب المسلمين المتأثرين بالمستشرقين:

١- الشيخ علي عبدالرازق مؤلف كتاب "الإسلام وأصول الحكم"

يعد كتابه هذا من كتب التجديد في الفكر الإسلامي الحديث، يتطرق الكاتب فيه إلى موضوع: إن الإسلام دين لا دولة، يستعرض فيه مؤلفه هذا الموضوع مستعيرًا فيه كل ما كتبه المستشرقون حوله من آراء، وينتهي المؤلف فيه إلى القول: إن الإسلام (دين) فقط، وإن ما يدعو إليه من (وحدة) بين المؤمنين به هو وحدة دينية لا وحدة في (الحكومة) أو (الدولة) أو الترابط السياسي.

وبذلك جاء مخالفًا لما أجمع عليه المسلمون، مستهدفًا إبعاد الإسلام عن مجال الحكم والعلاقات؛ ليصبح مثل المسيحية الغربية كما يريده المستشرقون، ولذلك نال إعجاب المعنيين من الغربيين فتُرجم إلى لغاتهم وأصبح من المصادر والمراجع المعتمدة في الجامعات الأمريكية والغربية الأخرى التي تهتم بالدراسات الإسلامية، حيث وجدت تلك الجامعات في ذلك الكتاب خير عون في تشويه الحقائق الإسلامية والتأثير من خلاله على عقيدة

المسلمين باعتباره كتابًا إسلاميًا لأحد مشايخ الأزهر، وإن كان لا يخرج في كل ما جاء به عما جاء من المستشرقين الغربيين من نظرهم إلى الإسلام كدين وحكمهم عليه، يقول رشيد رضا واصفًا ذلك الكتاب: أول ما يقال في وصف هذا الكتاب: إنه هدم لحكم الإسلام وشرعه من أساسه، وتفريق لجماعته وإباحة مطلقة لعصيان الله ورسوله في جميع الأحكام الشرعية الدنيوية وتجهيل للمسلمين كافة من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين.

٢- الدكتور طه حسين:

يقول الدكتور طه حسين: فإذا كنا نريد هذا الاستقلال العقلي والنفسي الذي لا يكون إلا بالاستقلال العلمي، والأدبي، والفني، فنحن نريد وسائله بالطبع، ووسائله أن نتعلم كما يتعلم الأوروبي، لنشعر كما يشعر الأوروبي، ولنحكم كما يحكم الأوروبي، ثم لنعمل كما يعمل الأوروبي، ونصرف الحياة كما يصرفها.

إن التجديد الذي يطالب به الدكتور طه حسين هنا هو مجاراة الأوروبيين في تفكيرهم واقتفاء أثرهم فيما يقولون ويفعلون وهذا هو عين ما يردده المستشرقون من ضرورة اتباع خطوات الغرب في الحياة، ويقع في مقدمة تلك الخطوات فصل الدين عن السياسة وإبعاده واللغة في مجال الترابط والتلاحم، يقول في هذا الصدد:

من المحقق أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد: بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية ولا قوامًا لتكوين الدول.

ويقول في معرض إعجابه بالدراسات الاستشراقية، وضرورة التماس العلم عند المستشرقين والغربيين: لابد من التماسه -أي العلم- عندهم حتى يتاح لنا نحن أن ننهض على أقدامنا ونطير بأجنحتنا، ونسترد ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علومنا وتاريخنا وآدابنا.

فالتجديد الذي طالب به طه حسين ودعا إليه هو وغيره في الحقيقة والواقع ما هو إلا فكرة تبناها المستشرقون ودعوا إليها وعملوا على تحقيقها.

فما قاله لم يكن إلا ترديدًا لمقالتهم وتقليدًا لدعوتهم. يقول الدكتور البهي عن ذلك:

فحـــركة الـــتجديد في الفكر الإسلامي التي ظهرت في الشرق الإسلامي منذ بداية القرن العشرين تعتبر (تقليدًا) للدراسات الإسلامية في تفكير المستشرقين الغربيين. ثم أضيف إلى هذا التقليد فيما بعد –منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بعد أن تهيأ الجو في الشرق الإسلامي للحـــديث في مواجهة الإسلام والمسلمين- ترديد الفكر الإلحادي المادي الغربي الوضعي والماركسي.

يحدثنا الأستاذ أنور الجندي عن مدى تأثر طه حسين وغيره بدراسات المستشرقين في مـــصر قائلاً: كان المستشرقون يقفون من رجالنا موقف التلاميذ أمثال أحمد زكي باشا، وأحمـــد تيمور وعبدالعزيز جاويش... ثم تغير الوضع فأصبح مثقفونا في جامعات أوروبا تلامـــيذ المستشرقين في دراستهم وجاء بعضهم إلى مصر فأعلى من شأن الاستشراق كما فعـــل طه حسين في مقدمة كتابه عن الأدب الجاهلي، ومن المعروف أن طه حسين وزكي مـــبارك ومنـــصور فهمي ومحمود عزمي كانوا تلاميذ لمستشرقين يهود مثل (دور كايم) و(ليفـــي بـــرايل) والأخير هذا حرض منصور فهمي على معالجة موضوع تعدد زوجات الرسول ﷺ بأسلوب استشراقي.

ويقول الدكتور محمد عثمان فتحي عن طه حسين وغيره ممن افتتنوا بالحضارة الغربية فانحـــرفوا في كـــتاباتهم عن الموضوعية العلمية ومنهجيتها: كان جيل طه حسين ومنصور فهمـــي وتلامـــيذهما من غلاة المشايعين للحضارة الغربية وثقافتها خيرها وشرها حلوها ومـــرها، ما نحب منها وما نكره، ومن زعم غير ذلك فهو خادع أو مخدوع. كما عبر طه حـــسين في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر"، وكما عبرت مذكرات زوجته الفرنسية التي نشرتها أخيرًا.

الحـــضارة الغـــربية هـــي الـــتي أوقعت كثيرًا من الكتاب المسلمين في أخطاء كثيرة، وخدعـــتهم بمظاهرها المادية وما حصل من تقدم فيها جاهلين أو متجاهلين أنها كسراب؛ لأنها خالية من القيم الإنسانية والأمثلة على ذلك كثيرة.

فكـــل مـــا يكتبه الغربيون عن الحضارة العربية الإسلامية يصبح لدى هؤلاء حقائق مسلمًا بها، ويحاولون نشرها وغرسها في نفوس المسلمين، والدفاع بكل حماس عنها.

ولقد أحس بإساءة هذا الإعجاب بالحضارة الغربية والانخداع بها بعض الكتاب الغربيين فأبدى النصح للمسلمين بتدارك أمرهم، وعدم الانجراف في ذلك التيار، والتمسك بقيمهم الأصيلة والاعتزاز بشخصيتهم الإسلامية الرفيعة، يقول الدكتور (دون لويس روفاس) أستاذ كرسي علم النفس في كلية الطب في جامعة غرناطة: انصحوا المبهورين بحضارة الغرب أن يعيدوا النظر فيها، احذروا يا عرب يا مسلمون أن تخلطوا تصوراتكم بالحضارة الأوروبية، أنتم أهل حضارة عريقة، وهي وإن كانت لم تصل من الناحية المادية إلى مستوى الغرب. إلا أن لها مقومات لا تملكها حضارة بلداننا الأوروبية، إن الإنسان حاول أن يؤلّه نفسه بواسطة العلم، والعلم وحده، ولكنه وجدها أحقر وأقل مما كان يعتقد، فلا تتخلوا عن نزعاتكم المكتسبة من تصوراتكم الإسلامية، ولا تتطلعوا إلى الحضارة الغربية تطلع الممجد لها، المعظم لشأنها، إنها ستبلى... إن أخطر ما يواجهكم هو الشعور بالنقص تجاه الحضارة الأوروبية والثقة بكل ما يأتي من خارج البلاد. اهـ.

أما الكتاب المسلمون الذين تأثروا بآراء وأفكار المستشرقين حول الحديث النبوي، والتي تهدف إلى التشكيك فيه من جوانب مختلفة حتى يترك العمل به من قبل المسلمين. فيحدثنا عن ذلك الدكتور الأعظمي مبينًا المرحلة التي بدأ فيها هؤلاء الكتاب يرددون نفس الآراء والأفكار زاعمين أنها من نتاج عقولهم ونتائج أبحاثهم للتستر على مصدرها الحقيقي، موهمين المسلمين أنها نابعة من عقول بني جلدتهم حتى يكون تأثيرها أوقع في نفوسهم، فيقول عن ذلك: لا يحدثنا التاريخ عن أفراد أو جماعات تنتسب إلى الإسلام دعت إلى نبذ الحديث النبوي بعد القرن الثاني، وأما الذين نادوا به في القرن الثاني فقد أصبحوا في ذمة التاريخ، واستمر الوضع هكذا بعد ذلك أحد عشر قرنًا على وجه التقريب. وتغير الزمن وزالت دولة المسلمين، وجاء عهد الاستعمار والاستعباد، وبدأ المستعمرون بنشر أفكارهم الخبيثة للقضاء على مقومات الإسلام، عن طريق طائفة من المستشرقين الذين أعدوا للقيام بنشر تلك الأفكار، فأثمرت تلك الجهود المبذولة بكل سخاء من قبل الاستعمار في البلاد الإسلامية التي وقعت في قبضته، فأصيبت بسموم تلك

الأفكار؛ ففي العراق برز من دعا إلى نبذ الحديث، أما في مصر فترجع هذه الفتنة إلى عهد محمد عبده إن كان ما ذكره واستنتجه "أبو رية" صحيحًا، وقد أعلن الفكرة نفسها –أي فكـــرة ترك الحديث- الدكتور توفيق صدقي في مجلة المنار حينما كتب فيها مقالين بعنوان "الإســـلام هـــو القرآن وحده" استدل بالآيات القرآنية لعدم الحاجة إلى الحديث النبوي حسب زعمه.

٣- أحمد أمين:

ثم جـــاء دور أحمـــد أمين ليضرب بأوفر سهم في هذا الميدان مرددًا أكاذيب وأباطيل "جـــولد تسيهر" وغيره من المستشرقين حول الأحاديث النبوية، متونها وأسانيدها ورجالها ومكانـــتها التشريعية في الإسلام وذلك حينما ألف كتابه "فجر الإسلام" سنة ١٩٢٩م، وعقـــد فصلاً خاصًا فيه عن الحديث يأتي فيه بأفكار وآراء حوله، وهي لا تخرج بجملتها عن أفكار وآراء المستشرقين، ولكن دون أن ينسبها إليهم لحاجة في نفس يعقوب أخفاها، إلا أنه أظهرها لبعض خلانه.

يقـــول الدكـــتور السباعي مبينًا هذه الحقيقة: لما ثار النقاش حول الإمام الزهري في الأزهـــر سنة ١٣٦٠هـ قال الأستاذ أحمد أمين للدكتور علي حسن عبدالقادر وهو الذي أثـــيرت الـــضجة حوله: إن الأزهر لا يقبل الآراء العلمية الحرة، فخير طريقة لبث ما تراه مناسبًا من أقوال المستشرقين أن لا تنسبها إليهم بصراحة ولكن ادفعها إليهم على أنها بحث مـــنك، وألبسها ثوبًا رقيقًا لا يزعجهم مسها كما فعلت أنا في "فجر الإسلام" و"ضحى الإسلام".

ومـــما جـــاء عـــن أحمد أمين في محاولته التشكيك في الحديث النبوي مقتفيًا في ذلك أســـلوب ونهج المستشرقين في الفصل الذي عقده لهذا الغرض زعمه: أن كثرة الوضع في حـــديث رسول الله ﷺ والكذب عليه إنما نشأ ذلك من عدم تدوين الحديث، وزعم فيه أيضًا أن الكذب على رسول الله ﷺ بدأ في عهد النبي نفسه ﷺ، وأن للشعوب التي دخلت الإســـلام دورًا بارزًا في الوضع الذي بلغ من الكثرة إلى درجة أن البخاري انتقى صحيحه مـــن ستمائة ألف حديث كانت شائعة في عصره، وذكر في هذا الفصل أن جهود علماء

الحديث إنما انصبت على السند من الحديث دون متنه. وأتى بمجموعة من الأحاديث على صحة ما يزعم وهي كلها غير صالحة للاستدلال على زعمه. ثم تطرق إلى المكثرين من الصحابة للحديث فذكر من جملتهم أبا هريرة الذي قال عنه محاولاً التشكيك في أمانته والثقة به: إنه لم يكن يكتب، بل كان يحدث عن ذاكرته، وإنه كان يحدث عن رسول الله بما لم يسمعه منه، وإن الصحابة شكوا في صدقه وبالغوا في نقده ويعترض على نقاد الحديث لأنهم عدلوا الصحابة كلهم و لم يتعرضوا لأحدهم بسوء و لم ينسبوا لأحدهم كذبًا. فكانوا يعدلون كل الصحابة، و لم يجرحوا أحدهم على عكس ما فعلوا بمن جاء بعدهم من الرواة. كما يتهم بعض علماء الحديث ونقاده بالغفلة وعدم الدقة كعبدالله بن المبارك.

مزاعم كثيرة واتهامات متنوعة ليس له معها أدلة تثبت صحتها، بل تكثر الأدلة التاريخية الثابتة على تفنيدها مما لا يدع مجالاً للشك في أنها من نسج خيال وتنم عن سوء نية، وأن مدعيها لم يكن باحثًا مخلصًا وكاتبًا أمينًا يمشي وراء البحث عن الحقيقة العلمية كما ينبغي، لقد رأيناه في أبحاثه خاصة فيما يتعلق بالحديث النبوي الشريف مغرضًا يهدف منها إلى التشكيك في الحديث النبوي، والتقليل من مكانته التشريعية، وهذا هو عين هدف المستشرقين من دراساتهم الحديثية، فقد فند الدكتور السباعي كل تلك المزاعم والأوهام تفنيدًا قائمًا على براهين وأسس علمية بحيث لم يدع لمستزيد مزيدًا عليه.

ومما يدل على أن أحمد أمين كان في مقدمة الطاعنين في الحديث والمشككين فيه أنه حينما نشر إسماعيل أدهم رسالة في سنة ١٣٥٣هـ عن تاريخ السنة، وأعلن فيها أن الأحاديث الموجودة حتى في الصحاح ليست ثابتة الأصول والدعائم بل هي مشكوك فيها، ويغلب عليها صفة الوضع، وحينما قوبلت هذه الرسالة بالرفض من قبل المسلمين وعلمائهم، واضطرت الحكومة المصرية إلى مصادرتها دافع الكاتب عن نفسه قائلاً: إن ما ذهبت إليه من الشك في صحة الحديث يشاطرني فيه جماعة من كبار الأدباء والعلماء وفي مقدمتهم أحمد أمين. فلم ينكر ما نسب إليه زميله فيما بعد.

٤- محمود أبو رية:

وبعد هؤلاء تسلم اللواء أبو رية الذي ألّف كتابه "أضواء على السنة المحمدية" فنشر فيه مزاعم واتهامات تجاوز الحد حول الحديث، وأخذ يخلط بين كل ما قاله من سبقه من المستشرقين ومن سار على طريقهم من المسلمين. فجاء كتابه مزيجًا من مختلف الآراء والأفكار التي قيلت للتشكيك في الحديث النبوي كمصدر للتشريع الإسلامي، يقول الدكتور أبو شهبة عن ذلك الكتاب وما اتبعه فيه مؤلفه من أسلوب: تلقف فيه كل ما قاله الأقدمون والمحدثون من طعون في الأحاديث ورجالها، وما قاله المستشرقون والمبشرون، وأذنابهم، وحرص أشد الحرص على أن يظهر السنة بمظهر الاختلاف والتناقض والتحريف والتبديل، والسذاجة والتخريف، وفي سبيل هذا الغرض زيف الصحيح وصحح المختلق المكذوب. اهـ.

يستشف من أحد النصوص الواردة في هذا الكتاب أن مؤلفه لم يكن ليحاول التشكيك في الحديث فحسب بل التشكيك في القرآن ونبوة محمد ﷺ، وذلك بإحالته القارئ في هذا النص على كتب "جولد تسيهر" المعروف بمواقفه من القرآن الكريم والرسول ﷺ. ومحاولته التشكيك في كل واحد منهما على حد سواء، والنص المستشف منه ذلك هو قوله: "ومن شاء أن يستزيد من معرفة الإسرائيليات والمسيحيات وغيرها في الدين الإسلامي فليرجع إلى التفسير والحديث والتاريخ، وإلى كتب المستشرقين أمثال جولد تسيهر، وفون كريمر وغيرهما".

وفي النفس شيء حتى من قصده بكلمة "المحمدية" الواردة في عنوان كتابه؛ فكلمة المحمدية كما ذكر إدوارد سعيد هي التسمية الأوروبية العلائقية المهينة التي تطلق على الإسلام عندهم.

أبو رية في محاولته التشكيك في السنة يقلل من دور علماء الحديث في ميدان العلم والتشريع والنقد والتمحيص والتثبت من روايات الأخبار، حيث يقول عنهم: فترى المتقدمين منهم، وهم الذين وضعوا هذه القواعد، قد حصروا عنايتهم في معرفة رواة الحديث والبحث على قدر الوسع في تاريخهم، ولا عليهم بعد ذلك إن كان ما يصدر عن

هـــؤلاء الرواة صحيحًا في نفسه أو غير صحيح، معقولاً أو غير معقول، إذ وقفوا بعلمهم عند ما يتصل بالسند فحسب، أما المعنى فلا يعنيهم من أمره شيء. اه.

نفـــس المزاعم التي رددها المستشرقون، ويقول عن كتابة الأحاديث في عهد النبيﷺ: ... تـــضافرت الأدلة على أن أحاديث الرسول ﷺ لم تكتب في عهد النبي ﷺ كما كان يكتب القرآن، ولا كان لها كتّاب يقيدونها عند سماعها منه وتلفظه بها. اهـ.

ونحـــن بـــدورنا نقـــول له: لقد تضافرت الأدلة بما لا يدع مجالاً للشك في أن كتابة الحـــديث وقعت في الجملة في عهد الرسول ﷺ وإن كانت على نطاق محدود، وليس أدل علـــى هذه الحقيقة من كتب ورسائل الرسول ﷺ إلى الأمراء والملوك، إضافة إلى ما كتب في عهده من كتب وصحائف بإذنه وأمره.

هذا وقد تولى الرد على مزاعم أبي رية السابقة أساتذة أفاضل منهم الأستاذ عبدالرحمن المعلمي اليماني[1].

ولقـــد انتقلت مذاهب كثيرة إلى العالم العربي والإسلامي وظهرت أحزاب فكرية ممثلة لها، إمـــا عن طريق التسرب التلقائي العفوي، القائم أحيانا على حسن النية من جانب المتلقـــي، وذلك بسبب رغبة بعض البلدان في تقليد دول الغرب التي كانت تحتلها، وإما عـــن طريق الغزو الفكري المنظم الذي يستهدف استمرار تبعية الشعوب الإسلامـــية وانصياعها للتيارات الفكرية الوافدة من غيرها ممن لا يدين دينها ولا ينتهج سبيل الحـــق الذي هداها الله إليه، ومن هذه المذاهب الفكرية التي كان لها أثر في العالم الإسلامي:

الوضعية:

فالمذهب الوضعي مذهب فلسفي ملحد يرى أن المعرفة اليقينية هي معرفة الظواهر التي تقوم على الوقائع التجريبية، ولاسيما تلك التي يتيحها العلم التجريبي، وينطوي المذهب على

---

(١) انظـــر: د. محمد بهاء الدين: المستشرقون والحديث النبوي، دار النفائس، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م- ص(٢٥٦-٢٧٧).

إنكار وجود معرفة تتجاوز التجربة الحسية، ولاسيما فيما يتعلق بما وراء المادة وأسباب وجودها.

ولقد تأسس المذهب الوضعي في فرنسا على يد الفيلسوف كونت، وقد تأثر بهذا المذهب زكي نـــجيب محمود وهو مفكر عربي مصري، تبع الفلسفة الوضعية الملحدة، وتبنى أفكارها، وألف كتاب "المنطق الوضعي"، وقيل: إنه تاب عن ذلك في أواخر عمره وأعلن ذلك في دار العلوم، وقد ذكر ذلك الدكتور محمد الجليند أستاذ الفلسفة بدار العلوم.

الوجودية:

الوجودية اتجاه فلسفي يغلو في قيمة الإنسان ويبالغ في التأكيد على تفرده، وأنه صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار ولا يحتاج إلى موجه. وهي فلسفة عن الذات أكثر منها فلسفة عن الموضوع.

ومن أشهر زعمائها المعاصرين: جان بول سارتر الفيلسوف الفرنسي المولود سنة ١٩٠٥م، وهو ملحد ويناصر الصهيونية، له عدة كتب وروايات تمثل مذهبه منها: الوجودية مذهب إنساني، الوجود والعدم، الغثيان، الذباب، الباب المغلق.

وقد تأثر بتلك الدعوة الدكتور عبدالرحمن بدوي، وقد قيل برجوعه عن ذلك؛ حيث ألف في أواخر عمره كتابين في الدفاع عن الإسلام ورسوله.

الروحية الحديثة:

الروحية الحديثة دعوة هدامة وحركة مغرضة مبنية على الشعوذة، تدعي استحضار أرواح الموتى بأساليب علمية وتهدف إلى التشكيك في الأديان والعقائد وتبشر بدين جديد وتلبس لكل حالة لباسها. ظهرت في بداية هذا القرن في أمريكا ومن ورائها اليهود ثم انتشرت في العالمين العربي والإسلامي؛ حيث تحمس لها عدة أشخاص وحملوا رايتها، منهم:

-الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير أمين عام (الجمعية المصرية للبحوث الروحية)، وقد أصدر مجلة "عالم الروح" وهي الناطقة باسم هذه الدعوة الهدامة، وقد بدأ نشاطه منذ سنة ١٩٣٧م وقام بترجمة كتابي فندلي وباورز.

-الأستاذ وهيب دوس المحامي ت ١٩٥٨م وهو رئيس الجمعية المذكورة.

-د.علي عبدالجليل راضي رئيس (جمعية الأهرام الروحية)، له كتاب بعنوان "مشاهداتي في جمعية لندن الروحية".

-حسن عبدالوهاب وكان سكرتيرا للجمعية لفترة، ثم اكتشف زيف الروحية الحديثة.

-وهناك عدة مجلات وصحف أخرى تروج لها مثل: مجلة صباح الخير، آخر ساعة، المصور، المقتطف، وصحيفة الأهرام، فضلا عن مجلة عالم الروح الخاصة بها.

ولقد تغلغلت الأفكار الوافدة في المدارس الأدبية؛ حيث نقل كثير من المثقفين العرب تلك الاتجاهات إلى بلادهم، فاستعملوا نفس الألفاظ، ورددوا نفس التصورات، وتبنوا نفس المفاهيم، دون بيان للأسس الأخلاقية التي تقوم عليها هذه المدارس.

وهكذا وجد القارئ المسلم نفسه، واقعا تحت تأثير هذه المدارس، بل إنه ألزم بدراستها في الكليات المعنية بالدراسات الأدبية، وأعد فيها الرسائل العلمية، وبدت فلسفات هذه المدارس كما لو كانت جزءًا لا يتجزأ من طبيعة تكون الشباب المسلم في المجال الأدبي، ومنها:

الحداثة:

وهو مذهب فكري أدبي علماني، بني على أفكار وعقائد غربية خالصة مثل: الماركسية والوجودية والفرويدية والداروينية، وأفاد من المذاهب الفلسفية والأدبية التي سبقته مثل السريالية والرمزية... وغيرها.

وتهدف الحداثة إلى إلغاء مصادر الدين، وما صدر عنها من عقيدة وشريعة، وتحطيم

كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية بحجة أنها قديمة وموروثة؛ لتبني الحياة على الإباحية والفوضى والغموض، وعدم المنطق، والغرائز الحيوانية، وذلك باسم الحرية، والنفاذ إلى أعماق الحياة.

ومن رموز مذهب الحداثة في البلاد العربية:

-يوسف الخال -الشاعر النصراني- وهو سوري الأصل رئيس تحرير مجلة شعر الحداثية، وقد مات منتحرا أثناء الحرب الأهلية اللبنانية.

- أدونيس (علي أحمد سعيد) نصيري سوري، ويعد المروج الأول لمذهب الحداثة في البلاد العربية، وقد هاجم التاريخ الإسلامي، والدين والأخلاق في رسالته الجامعية التي قدمها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة "القديس يوسف" في لبنان، وهي بعنوان: الثابت والمتحول، ودعا بصراحة إلى محاربة الله ﷻ، وسبب شهرته فساد الإعلام بتسليط الأضواء على كل غريب.

-د.عبدالعزيز المقالح - وهو كاتب وشاعر يماني، وهو الآن مدير لجامعة صنعاء وذو فكر يساري.

-عبدالله العروي - ماركسي مغربي.

-محمد عابد الجابري مغربي.

-الشاعر العراقي الماركسي عبدالوهاب البياتي.

-الشاعر الفلسطيني محمود درويش - عضو الحزب الشيوعي الإسرائيلي أثناء إقامته بفلسطين المحتلة، وهو الآن يعيش خارج فلسطين.

-كاتب ياسين ماركسي جزائري.

-محمد أركون جزائري يعيش في فرنسا.

-الشاعر المصري صلاح عبدالصبور - مؤلف مسرحية الحلاج.

المبحث الثالث: مناهج دعوية أفرزها الواقع المعاصر[1]

تمهيد:

بعد أن أطلنا الحديث عن العوامل الداخلية والخارجية التي أثرت على العالم الإسلامي، نستطيع أن نقول: إن بقية من الخير كانت لا تزال موجود، من رجال قائمين على الحق لا يضرهم من خذلهم، قد فتتت أكبادهم تلك الحال المتردية للعالم الإسلامي، فهبوا يجاهدون على جميع الأصعدة، فمنهم من حارب الاستعمار وما جلبه علينا من أفكار منحرفة تحاول تشويه العقيدة الإسلامية، ومنهم من حارب الجهل الذي خيم على العقول المسلمة قرونًا طويلة..إلخ.

هؤلاء الرجال هم إفرازات للعوامل الخارجية المتمثلة في الاستعمار بكافة صوره وأشكاله والمستمرة حتى اليوم، وكذلك للعوامل الداخلية؛ حيث الانبعاث الذاتي الذي يعبر عن الأصالة ومحاولة التغيير الجادة لا الحلول المستوردة من هنا أو هناك والتي لا تعبر عن شخصيتنا أو تراثنا وأصالتنا بحال من الأحوال.

وكان أول انبعاث ذاتي يحاول تجديد الروح الإسلامية هي دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب والتي تعتبر هي أول نهضة حقيقية للمسلمين في العصر الحديث لا ما يشاع من أن أول نهضة لنا جاءت إثر الحملة الفرنسية الغازية لأرض مصر أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، فالنهضة المتمثلة في دعوة هذا الشيخ المجدد كانت سابقة لهذه الحملة الصليبية، وإذا كان الشيخ محمد بن عبدالوهاب قد استطاع أن يقوم بدعوة أثرت في العالم الإسلامي كله، فإن هذا الشيخ لم يكن الوحيد الذي انفعل بأمر أمته وأراد أن ينفعها، فهناك دعوات كثيرة تأثرت بدعوى الشيخ من قريب أو من بعيد، ولكن يجمعها جميعًا العمل للإسلام ومحاربة البدع والجهل والتخلف العلمي والعملي الذي أصاب هذه الأمة؛ ومن هذه الدعوات أو المناهج الدعوية:

---

(١) سنعرض في هذا المبحث لعدد من نماذج الجماعات الدعوية التي أفرزها الواقع، وهذا لا يعني بالضرورة تأييدًا لشيء من تلك الجماعات المذكورة.

دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب

التعريف بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب:

قام الشيخ محمد بن عبدالوهاب المشرّفي التميمي المولود سنة ١١١٥هـ والمتوفى سنة ١٢٠٦هـ، في الجزيرة العربية وبالتحديد في نجد إبان القرن الثاني عشر الهجري، وبتعاون أمير الدرعية -أولا- ومؤسس الدولة السعودية الأولى -بعد ذلك- الأمير محمد بن سعود بن مقرن بحركة دعوية جهادية إسلامية كبرى في جزيرة العرب كان لها أثر خارجها، ولقد أخذت هذه الدعوة على عاتقها نشر الإسلام والذود عنه منطلقة من تحقيق التوحيد الذي كان هجر وساد المجتمعات الإسلامية في الشرق والغرب أنماط من الكفريات والبدع أنست الناس أمور دينهم وحلت محله وكأنها الدين الحق الذي لا يخالطه باطل[1] ولقد تمثلت حال العالم الإسلامي قبل قيام الشيخ محمد بن عبدالوهاب بحركته فيما يلي.

١-تضعضع وانهيار الدول الإسلامية القائمة حائذ كالعثمانية السنية التي أصبحت صوفية ترعى الطرقية بمذاهبها وصورها الخليط من النصرانية والبوذية وتشيع فيها الرهبانية والإيمان بنظريات خيالية كالحلول ووحدة الوجود والاتحاد، والدولة الصفوية الشيعية الرافضية، ودولة أباطرة المغول التي بدلت دينها على يد أكبر منشئًا ديانة السيخ بدلاً من الإسلام والهندوسية أو مزيجًا منهما[2].

٢-انقضاض المستعمر على العالم الإسلامي من كل جانب وتربص به مثلما سموا الدولة العثمانية بالرجل المريض وأخذوا يقتطعون أطراف العالم الإسلامي من الشرق والغرب[3].

---

(١) انظر: ابن عثمان: روضة الأفكار، (١/٢٥)- د. صالح العبود: عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي- رسالة دكتوراه- (١/١١٣)، وما بعدها- ابن حجر القطري: الشيخ محمد بن عبدالوهاب- دار الاعتصام- القاهرة- ص(٢٠-٢٨).

(٢) عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب- (١/٣٧-٤٣).

(٣) حاضر العالم الإسلامي (١/٢٥٩)، وما بعدها.

٣-عمـــوم الجهـــل بالـــدين وشيوع الكفر والبدع في كل مكان فعبدت الأحجار والأشجار وكان ينذر لها وللجن ويذبح ويتوسل بها ويتبرك..إلخ[١].

ولم تكـــن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب جماعة ولا فرقة ولا مذهبا دينيا جديدًا، ولا حـــزبا سياســـيا ولا دعوة مناهضة ولا مخالفة لدعوة النبي الخاتم محمد ﷺ، بل كانت حـــركة إسلامية دعوية جهادية تعمل لتكريس الإسلام وإعادته إلى الواقع الحياتي وإعادة أهلـــه إلـــيه، وكان صاحبها وباعثها وعلماؤها من حيث العقيدة على مذهب أهل السنة والجماعة وديانة الأئمة الأربعة وفي الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وقد وصمها مخالفـــوها بالوهابية نسبة إلى مؤسسها الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتملص الشيخ وأتباعه من هذه التسمية ودفعوها غير مرة وإلى الآن.

وقـــد ســـرد الشيخ عقيدته غير مرة مؤكدًا أنه على الإيمان الذي كان عليه النبي ﷺ وصـــحابته والتابعون وتابعوهم والأئمة الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد الذين زكـــتهم الأمـــة، وما كان عليه شيوخه السلفيون مثل شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن كثير.. إلى آخرهم، مؤمنًا بأركان الإيمان كلها من الاعتقاد بالجنان والقول باللـــسان والعمل بالأركان، ومؤمنًا بأصوله الستة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وبما كان عليه جمهور الأمة من أهل السنة والجماعة مثل أن القرآن كلام الله غير مخلوق ومضى الجهاد وطاعة الإمام العادل والفاجر والصلاة خلفه والجهاد معه..إلخ[٢].

دواعي نشوء دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب:

تمـــثلت الأســـباب التي دعت إلى نشوء دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في سببين رئيـــسيين إلى جانـــب وجـــود الشيخ وعلمه وندبه نفسه للذود من دين الإسلام وهذان السببيان هما...

---

(١) انظر: د.عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب-(١/٣٧) وما بعدها- الشوكاني: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد- ص(١٨)- حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين- ص(٣١٩).

(٢) انظر: رسالة الشيخ إلى أهل القصيم ضمن "الشيخ محمد بن عبدالوهاب" ص(٣٤) وما بعدها.

أ-فشو الكفريات والبدع في المجتمع الإسلامي كله وظهورها في محيط الشيخ من نجد من جزيرة العرب بصورة صارخة واضحة التباين مع ما تعلمه الشيخ من الدين الحق وتتمثل هذه الشركيات والبدع في....

١-شيوع الطرقية الصوفية بما يلابسها من بدع ومخالفات ما أنزل بها من سلطان.. بدع وصلت إلى حد الكفر كالقول بالحلول ووحدة الوجود وبدع أصغر من الكفر لكنها ليست من الإسلام كالذكر بما لا يجوز وعلى هيئات لا تجوز.. أضف إلى ذلك سمة المتصوفة الخطيرة وهي نفض أيديهم من الأمور والانقطاع عن العالم تاركين كل شيء للناهبين ينهبونه، وقد بلغ الأمر أسوأه لما رعت الدولة العثمانية التصوف دفعًا للناس عن الاشتغال بأمر أمتهم المتداعية الأركان[1].

٢-وقد تفشت في الدولة العثمانية مثالب أخرى مثل الهزائم المتتالية أمام النمسا وروسيا والبندقية مما أدى إلى توقيع صلح كارلوفزي عام ١١١٠هـ، وانفلات المر من يد السلطان وقيام الوزراء وهم في الغالب عملاء للأعداء بتدبير الأمور، وقيام الكثيرين من الولاة بالخروج على الدولة والاستقلال بما تحت أيديهم بل وبتوسع على حساب الدولة وقتالها مثلما فعل محمد علي في مصر. وكذلك امتلاء القصور بالجواري والسبايا ممن كان بعضهن عيونًا للأعداء، وتعالي السلاطين على الرعية، وقد أيدت الدولة التصوف بمختلف طوائفه وصوره رغم تداخل هذه الصور مع عادات النصارى والهندوس والبوذيين من مثل الرهبانية والموالد والإيمان بنظريات الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، وكذلك قصد الأولياء والصالحين من الأحياء والأموات والنذر والذبح والدعاء عند القبور[2].

٣-وأما عن نجد (موطن نشوء دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب) فكانت أكثر سوءًا.. إذ لم تشهد نفوذًا للدولة العثمانية ومن أجل ذلك كانت الحروب بين البلدان النجدية قائمة والصراع بين قبائلها المختلفة مستمرًا وحادًّا وعنيفًا، ولذا كانت نجد متمزقة بين إمارات صغيرة متعادية ومتفككة في كل قرية أمير وفي نفس الوقت يتهدده طامع في

---

(١) عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب- (١/٧١)، وما بعدها.

(٢) السابق: (١/٤٣)، وما بعدها.

إمارته وربما يكون أقرب أقربائه فهو خائف ومخيف وقد وصل بحال إلى أن القرية الواحدة تتمزق بين أميرين متعاديين أو ثلاثة أو أكثر[1].

"وقد كان الناس فيها على حال لا يرضاها مؤمن، كان الشرك الأكبر قد انتشر في نجد حتى عبدت القباب والأشجار وعبد القبور وعبد من يدعي الولاية وهو من المعتوهين أو المجانين واشتهر في نجد السحرة والكهنة وسؤالهم وتصديقهم وليس هناك منكر إلا من شاء الله وغلب على الناس الإقبال على الدنيا وشهواتها[2]. وكثر الاعتقاد في الأشجار والأحجار والقبور والبناء عليها والتبرك بها والنذر لها والاستعاذة بالجن والذبح لهم ووضع الطعام لهم وجعله في زوايا البيوت لشفاء مرضاهم ونفعهم وضرهم والحلف بغير الله[3] وما كان عليه أكثر أهل البوادي من غزة وآل ظفير وأمثالهم من عدم إقرارهم بالبعث وعدم اتباعهم كتاب الله وأنهم كانوا يقولون: "إن كتاب الله عند الحضر وأنهم"عايفينه" ومتبعون ما أوجد آباؤهم مما يسمونه الحق ويفضلونه على شريعة الله وفيهم من نواقض الإسلام أكثر من مائة ناقض كسب الشرع أو سب الأذان إذا سمعوه[4].

ب-السبب الثاني من أسباب نشوء الدعوة هو الضعف المزري الذي لحق العالم الإسلامي قبيل قيام الشيخ بحركته، وقد تمثل في أمور كثيرة أهمها:

-ضعف الدول القائمة حالئذٍ كالدولة العثمانية التي أخذ النصارى يقتطعون أطرافها من الشرق والغرب، وينشق عليها الولاة في العالم العربي كما حدث على أيدي المماليك ومحمد علي في مصر والشام، وكذلك الدولة الصفوية الرافضية في إيران التي كانت في تناحر مستمر مع الدولة العثمانية السنية (راعية التصوف بدورها) مما أضعفهما جميعًا، ودولة أباطرة المغول في الهند التي تخلت عن الإسلام والعربية ممثلة في الخط العربي عملاً

---

(١) ابن بشر: "عنوان المجد" (٩/١) بتصرف.

(٢) الشيخ ابن باز: من محاضرة له بعنوان "محمد بن عبدالوهاب دعوته وسيرته"، الدار السعودية للنشر- (٢٣).

(٣) عنوان المجد- (٦/١).

(٤) من رسالة للشيخ محمد بن عبدالوهاب ضمن روضة ابن غنام (١٠٧/١).

لحساب ما يشبه زمالة الأديان في عصرنا الحاضر.

-تداعي الأمم الغربية على الأمة الإسلامية وتقسيم الأرض الإسلامية فيما بينهم وتكوين إمبراطوريات متعاظمة على حساب العالم الإسلامي وإذلال أهله وانتهاب موارده وقد كانت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب من أهم أسباب منع استيلاء المستعمر على الحجاز ونجد وأحيانًا جزيرة العرب.

الأساليب التي اتخذها الدعوة لنشر التوحيد:

تعددت أساليب نشر الدعوة في دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ما بين أساليب تعليمية لتعليم الناس وتفهيمهم أمور دينهم ليلتزموا بها وأمور الكفر ليقلعوا عنها، وقد تعددت هذه بين إلقاء دروس العلم وتأليف الكتب وإلقاء الخطب وإنشاد الأشعار، وكذلك دعا الشيخ والعلماء في الدعوة الأمراء والتواصل معهم عبر الرسائل العديدة التي كان يبعث بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب إليهم يدعوهم فيها للتخلي عن الكفريات والبدع ومحاربتها والإقلاع عنها والرجوع إلى دين الله أو كان هؤلاء الأمراء يبعثون إلى الشيخ أو إلى علماء الدعوة ليستفتوهم في أمور دينهم فيبعث إليهم هؤلاء بالردود.

وكذلك لم يدخر الشيخ ولا أهل حركته وسعًا في محاربة الصادين عن سبيل الله ومحاربي الدعوة ولكن قاتلوهم قتالاً شديدًا حتى فشى الإسلام وأجلوا هؤلاء عن بلادهم وتوسعت الدولة السعودية الموحدة في بلادهم.

أولاً: الكتب:

١-"كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد" وهو من أول مؤلفات الشيخ وأصح الروايات على أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب ألفه في البصرة على حد قول الشيخ عبدالرحمن بن حسن، وقد أثنى عليه العلماء ثناء حسنًا.. قال ابن بشر: "ما وضع المصنفون في فنه أحسن منه، فإنه أحسن فيه وأجاد وبلغ غاية المراد"[1].

ويشتمل على ستة وستين بابًا بعد المقدمة التي بدأها الشيخ قائلاً: "كتاب التوحيد"

---

(١) عنوان المجد- (٩٢/١).

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2] وقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[3] وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[4] وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[5] وحديث ابن مسعود: "من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه[6] وحديث معاذ: "كنت رديف النبي ﷺ"[7].

وقد كثرت الشروح والتعليقات على كتاب التوحيد مثل: "تيسير العزيز الحميد"، و"فتح المجيد شرح كتاب التوحيد"، و"مغني المريد الجامع لشروح كتاب التوحيد"، "فضل الغني الحميد تعليقات على كتاب التوحيد".

٢-"مختصر سيرة الرسول ﷺ".

٣-"آداب المشي إلى الصلاة".

٤-"شروط الصلاة وأركانها وواجباتها".

٥-"رسالة في رد على الرافضة".

٦-"هذه مسائل لخصها الشيخ محمد بن عبدالوهاب من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية".

٧-مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب في اثنى عشر مجلدًا هي:

-الأول في العقيدة والآداب الإسلامية.

---

(١) الذاريات:٥٦.

(٢) النحل:٣٦.

(٣) الإسراء:٢٣.

(٤) النساء:٣٦.

(٥) الأنعام:١٥١.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٠٧٠)، وقال: "حديث حسن غريب".

(٧) أخرجه البخاري في "الجهاد والسير"، باب: اسم الفرس والحمار (٢٨٥٦)، وفي غير موضع من صحيحه ومسلم في "الإيمان"، باب: الدليل على أ ن من مات على التوحيد دخل الجنة (٣٠).

-خمس مجلدات في الحديث.

-مجلدان في الفقه.

-مجلد في التفسير و"مختصر زاد المعاد".

-مجلد في الرسائل الشخصية.

-مجلد في ملحق المصنفات.

وقـــام بتحقـــيقها عبدالعزيز زيد الرومي، ود/محمد بلتاجي، ود/سيد حجاب، وهذه الكتب كلها للشيخ محمد بن عبدالوهاب.

٨-"مجمـــوعة التوحيد" وتشتمل على ست وعشرين رسالة من تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ محمد بن عبدالوهاب وبعضها لمشايخ آخرين.

٩-"صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان" للشيخ المحدث محمد بشير السهسواني الهندي.

١٠-"الانتـــصار لحزب الله الموحدين والرد على المجادل عن المشركين" للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بطين.

١١-"العقائـــد الـــسلفية وأدلتها العقلية والنقلية" للشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي القطري.

١٢-"الـــشيخ محمد بن عبدالوهاب وعقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية وثناء العلماء عليه" للمؤلف السابق.

١٣-"الدر النضيد على أبواب التوحيد" الشيخ سليمان بن عبدالرحمن الحميدان.

وهـــذا قليل من كثير من الكتب التي أنتجتها دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب لتعليم الناس أمور دينهم وإرشادهم إلى مواطن الضلال حتى يتجنبوها.

ثانيا: الرسائل:

ومنها:

-رسالة الشيخ إلى أهل القصيم لما سألوه عن عقيدته.

-رســـالة إلى محمـــد بن عباد مطوع ثرمداء قد أرسل إليه كتابًا فيه كلام حسن في

تقرير التوحيد وغيره وطلب من الشيخ –رحمه الله– أن يبين له إن كان فيه شيء يخافه.

-رسالة أرسلها إلى فاضل آل مزيد رئيس بادية الشام.

-رسالة أرسلها إلى السويدي (عالم من أهل العراق) وكان قد أرسل له كتابًا وسأل عما يقول الناس فيه فأجابه بهذه الرسالة.

-رسالة أرسلها جوابًا لعبدالله بن سحيم مطوع أهل المجمعة حسين سأله عن الكتاب الذي أرسله عدو الله سليمان بن محمد بن سحيم مطوع أهل العراق.

-رسالة إلى أهل المغرب.

-رسالة الشيخ إلى ثنيان بن سعود.

-رسالة الشيخ إلى عبدالرحمن بن ربيعة.

-رسالته إلى أهل الرياض.

-رسالة الشيخ إلى أحمد بن إبراهيم.

-رسالة الشيخ إلى سليمان بن سحيم ردًّا على رسالته التي شنع بها على الشيخ.

-رسالة الشيخ إلى أهل الدرعية.

-رسالة الشيخ إلى أحمد بن محمد بن سويلم وثنيان بن سعود.

-رسالة أرسلها إلى إخوانه من أهل سدير بسبب أمر جرى بين أهل الحوطة من بلدان سدير.

-رسالة أرسلها الشيخ محمد بن عبدالوهاب والإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود إلى والي مكة مع الشيخ عبدالعزيز الحصين.

-رسالة من الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود إلى من يراه من العلماء والقضاة في الحرمين والشام ومصر والعراق وسائر علماء المشرق والمغرب يشرح فيها حقيقة العبادة وبين التوحيد والفرق بين حق الله وحق أنبيائه وأوليائه ويحذر من الشرك ويبينه ما هو ليجتنب.

-رسالة من الشيخ عبدالله بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب وفيها شرح مذهب الشيخ وأنصاره وأتباعه وأنه مذهب أهل السنة والجماعة وهي عبارة عن محضر سجل

ما وقع بالفعل ووثيقة تاريخية لا يقدر أحد أن ينكرها.

-رسالة "الفواكه العذاب في الرد على من لم يحكم بالسنة والكتاب" للشيخ حمد بن ناصر بن معمر، وهي كذلك وثيقة تاريخية سجلت مناظرة وقعت بين الشيخ حمد بن معمر وأصحابه وبين علماء مكة وأعيانها في دعاء غير الله، وتميز الشرك من التوحيد وحكم تارك الصلاة والزكاة وفي حكم البناء على القبور.

-رسالة للشيخ محمد بن عبداللطيف آل الشيخ تتضمن سجلاً بما عمله الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن من بعثه هذا الشيخ إلى اليمن وعسير وتهامة لينشر عقيدة السلف الصالح هناك ويبين التوحيد ليعمل به والشرك ليجتنب.

وقد جمعت هذه الرسائل وغيرها الكثير -والتي تبين منهجًا كان يتبعه الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأنصاره من أئمة آل سعود والعلماء الأجلاء -كانوا يرسلون إلى الأمراء ورؤساء العشائر والمطوعين ليدخلوا في التوحيد ويدعوا ما هم عليه مما لا يرضاه الله ورسوله والمؤمنون حتى إذا ما دخل هؤلاء الأمراء والرؤساء في التوحيد دخلت رعاياهم في إثرهم إذ الناس على دين ملوكهم.

ومن مجموعات الرسائل:

١-القسم الخامس من مجموعة مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب وقد صنفها وأعدها للتصحيح تمهيدًا لطبعها كل من عبدالعزيز زيد الرومي، د/محمد بلتاجي، د/سيد حجاب، وبلغت ستا وخمسين ٥٦ رسالة، وطبعت بمطابع الرياض بإشراف جامعة الإمام محمد بن سعود.

٢-"مجموعة الدرر السنية في الأجوبة النجدية ورسائلهم" جمع وتحقيق وترتيب الشيخ عبدالرحمن بن محمد بن قاسم ويقع في اثنى عشر جزءًا.

٣-"الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية" مجموعة خمس رسائل لكبار أئمة نجد وعلمائها جمع وترتيب الشيخ سليمان بن سحمان وقد طبعتها مطبعة المنار ط ٢ لسنة ١٣٤٤، وعلق عليها السيد محمد رشيد رضا صاحب المطبعة.

ثالثًا: الخطب والأشعار:

الخطابة أحد أهم الفنون العربية، وقد بلغت شأوًا بعيدًا من التبجيل والحفاوة لدى العرب الجاهليين فيما قبل ظهور الإسلام، ولما جاء الإسلام عنى بها كأحد أهم السبل لنشر الدعوة الإسلامية حتى أصبحت فيما بعد إحدى شعائره مثلما في الجمعة وفي العيدين ويوم عرفة... إلخ.

وقد كان رسول الله ﷺ أخطب الناس والعرب على الإطلاق، ونبغ من أمته في الخطابة كثير من الأعلام على رأسهم الراشدون الأربعة –رضي الله عنهم– خاصة الإمام علي بن أبي طالب ﷺ.

ومن غيرهم ثابت بن قيس وطلحة بن عبيدالله وعبدالله بن الزبير وزياد بن أبيه، وغيرهم الكثير في هذه الأمة الداعية إلى الله، وإلى دينه الحنيف.

أما في دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فقد كان الاعتماد على الكتب والرسائل أكثر، وناب عن الخطابة إلقاء الشيخ وعلماء الدعوة دروسًا على مريديهم من الشباب وطلاب العلم هي بلغة عصرنا أشبه بالمحاضرات منها بالخطب وقد كان لهذه الدروس أثر بالغ في شيوع دعوة الشيخ ودعوته ودعوة الإسلام على منهج السلف عمومًا، وقد كان الشيخ محمد بن عبدالوهاب نفسه متصفًا بفصاحة اللسان وعذوبة الحديث وقوة الحجة حتى ليقول عنه الشيخ أحمد بن حجر آل أبو طامي: "كان الشيخ –رحمه الله– علمًا من الأعلام، ناصرًا للسنة، وقامعًا للبدعة، خبيرًا مطلعًا، إمامًا في التفسير والحديث والفقه وأصوله وعلوم الآلة كالنحو والصرف والبيان، عارفًا بأصول عقائد الإسلام وفروعها، كشافًا للمشكلات، حلالاً للمعضلات، فصيح اللسان، قوي الحجة، مقتدرًا على إبراز الأدلة، وواضح البراهين بأبلغ عبارة وأبينها تلوح على محياه علامات الصلاح وحسن السيرة، وصفاء السريرة[1].

---

(١) الشيخ محمد بن عبدالوهاب ص(٢٨).

ولا شـــك أن هـــذه صفات الخطيب الناجح، ومع ذلك لم يغفل علماء الدعوة أمر الخطابـــة تمامًا وإنما توجد في ثنايا تاريخ حركتهم خطب ذات أثرٍ وفيها من حسن السبك وجـــودة المعـــاني وأهميتها في حمل فكر الشيخ محمد بن عبدالوهاب والتأكيد على عقيدته السلفية الشيء الكثير منها:

مـــن خطبة للملك عبدالعزيز: "أنا بذمتكم وأنتم بذمتي، إن الدين النصيحة، أنا منكم وأنتم مني، هذه عقيدتنا في الكتب بين أيديكم، فإن كان فيها ما يخالف كتاب الله؛ فردونا عنه، واسألونا عما يشكل عليكم فيها، والحكم بيننا كتاب الله وما جاء في كتب الحديث والسنة".

ويقول: "ما كنا عربًا إلا بعدما كنا مسلمين، كنا عبيدًا للعجم، ولكن الإسلام جعلنا سادة، ليس لنا فضيلة إلا بالله وطاعته واتباع محمد، ويجب أن نعرف حقيقة ديننا وعربيتنا ولا ننساها.

كل حرية باطلة إلا حرية الإسلام، والإنسان لا ينفع إلا بالدين، ونحن لا نبغي محاربة أوروبـــا، وإنما نطلب حقوقنا باتحادنا، فنعتصم بالله، والإسلام أكبر وسيلة وأكبر حصن، هو أكبر مزايا الحسب والنسب، فيجب على المسلم محبة دينه وشعبه ووطنه".

ويقـــول في خطـــبة لـــه بمكة أيضًا: "يسموننا بالوهابيين، ويسمون مذهبنا بالوهابي؛ باعتـــبار أنه مذهب خاص، وهذا خطأ فاحش نشأ عن الدعايات الكاذبة التي كان يبثها أهـــل الأغـــراض، نحن لسنا أصحاب مذهب جديد أو عقيدة جديدة، و لم يأت محمد بن عـــبدالوهاب بالجديد؛ فعقيدتنا هي عقيدة السلف الصالح التي جاءت في كتاب الله وسنة رســـوله ﷺ وما كان عليه السلف الصالح، ونحن نحترم الأئمة الأربعة، ولا فرق بين الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة؛ كلهم محترمون في نظرنا"[1].

---

(١) راجـــع: الـــشيخ محمـــد بـــن عـــبدالوهاب- (ص٢٨)- عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب- (٢/٣٠٦-٣٠٨).

أما عن الشعر:

وقد كثر الشعر في دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتنوع ما بين دعوة إلى أفكار الدعوة ومدح وثناء على علمائها وأئمتها وخاصة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله ومن شعراء الدعوة:

١-الشيخ سليمان بن سحمان صاحب "الدرر السنية" وله ديوان شعر مطبوع؛ منه قوله:

حنيفية نسقي لمن غاضنا المرا ... نعم نحن وهابية حنفية
سنصعقه صعقًا ونكسره كسرًا ... ومن هاضنا أو غاضنا بمغيضة
فعاد حسيرًا خاسئًا نائلاً شرًا ... وكم من أخي جهل رمانا بجهله

٢-الشيخ أحمد بن مشرف الإحسائي الوهيبي صاحب "ديوان ابن مشرف في العقائد والتوحيد والفقه والأدب" ومنه قوله جوابًا عن الإمام فيصل بن تركي:

فنال المُنى بالنصر كل موحد ... همو نصروا التوحيد بالبيض والقنا
يُسمى بشيخ المسلمين محمد ... وآووا إمامًا قام لله داعيًا
وقد جد في إخفائه كل ملحد ... لقد أوضح الإسلام عند اغترابه

٣-الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن، ومن شعره:

وسلت سيوف البغي من كل غادر ... ودارت على الإسلام أكبر فتنة
وكانوا على الإسلام أهل تناصر ... وذلت رقاب من رجال أعزة
تزورهم غرثى السباع الضوامر[1] ... وأضحى بنو الإسلام في كل مأزق

---

(١) راجع ديوان ابن مشرف في العقائد والتوحيد والفتن والأدب، وصالح العبود: عقيدة الشيخ- (٣٨٢/٢-٣٨٣).

رابعًا: الجهاد المسلح:

كـــان الشيخ محمد بن عبدالوهاب يؤمن بمضي الجهاد منذ بعث الله محمدًا ﷺ إلى أن يقاتل آخر أمته الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل...[1].

وشـــأن كل دعوة للتوحيد تلاقي من الكفار وأصحاب المصالح كثيرًا ممن يصدون عن ســـبيل الله، ويبغونها عوجا، فقد لاقت دعوة الشيخ ولاقى هو كثيرًا من الصدود والعنت إلى درجة أن اضطره الأعداء إلى الدخول في حروب مباشرة بالسيف والمدفع معهم، فقاد الجيوش الإمام محمد بن سعود وأحيانًا ابنه عبدالعزيز وانخرط الشيخ محمد بن عبدالوهاب جـــنديا في جـــيش التوحيد ليؤدبوا المنافقين وأصحاب المصالح التي تضاد مصالح الإسلام والتوحـــيد في أنحـــاء جزيرة العرب، وكانت أكبر المعارك التي خاضوها هي مع دهام بن دواس حاكم الرياض التي أصبحت عاصمة لآل سعود فيما بعد، وانتصر آل سعود ببركة الشيخ على دهام هذا، وتوسعت دولتهم حتى عمت غالب الجزيرة ووصلت إلى درجة أن ذهـــب سعود الكبير بنفسه لهدم قبة الحسين في شمال العراق (كربلاء) ومتجاوزين بذلك الحجـــاز الذي دخلوا في حروب معه كان لهم الغلبة فيها أيضًا وقد خلعوا الأشراف من حكم مكة والمدينة[2].

---

(١) راجع عقيدته في ذلك ضمن رسالة إلى أهل القصيم في مؤلفات الشيخ الجزء الخامس.

(٢) انظـــر: الـــشيخ محمد بن عبدالوهاب- ص(٢٧)- د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي- مكتبة النهضة المصرية- الطبعة الخامسة عشرة- ١٩٩٩م- (١٣٨/٧)- وغيرها.

جماعة التبليغ والدعوة[1]

تمهيد:

من أهم الاتجاهات الدعوية التي ظهرت كرد فعل للمؤثرات سالفة الذكر، والتي كان من أهمها فيما يخص جماعة التبليغ سيطرة الاستعمار الإنجليزي بوجوهه المتعددة الخبيثة على تلك الأراضي الهندية وبخاصة مدينة دلهي عاصمة بلاد الهند، فظهر من يفتح للاستعمار ذراعيه كما هو حال الخونة في كل عصر إلى أن جعلوا من البلاد كلها مرتعًا خصيبًا لكل جراثيم الفكر على اختلاف أنواعها.

لكن الأمر لم يكد يحلو للاستعمار وأعوانه حتى ظهر المخلصون (كما نحسبهم كذلك ولا نزكي أحدًا على الله) فحملوا مشعل الدعوة لهذا الدين، ففتح الله على أيّديهم القلوب المغلقة، وأنار بهم ظلمات كانت بعضها فوق بعض.

أولئك هم رجال التبليغ والدعوة كما أطلق عليهم، ونتناول في هذه الصفحات لمحة موجزة عن هذه الجماعة بوصفها أحد اتجاهات الدعوة الذي أخذ حيزًا كبيرًا من قطاع الأمة الإسلامية.

النشأة والتأسيس:

ظهرت هذه الجماعة في منطقة ميوات بدلهي عاصمة الهند في أواخر القرن الرابع عشر الهجري على يد محمد إلياس الكاندهلوي، والذي روي عنه في نشأة هذه الجماعة أنه رأى بعض الرؤى المنامية التي تحثه على الدعوة إلى الله والخروج لدعوة الناس إلى الدين وإرشادهم إلى طريق الهداية، فكانت هذه الرؤى هي السبب الثاني لنشأة هذه الجماعة بعد ظروف الاستعمار وطغيان الحضارة الغربية ومنهجها العلماني[2].

"وقبل دعوة الشيخ إلياس مئات وألوف من تلك المنطقة "ميوات"، وخرجوا شهورًا

---

(١) عرض هذا التعريف لا يقتضي تأييدًا لهذه الجماعة ولا لغيرها من الجماعات، وراجع ما كتبناه بشأن موقف المسلم من هذه الجماعات في الفصل الخاص بالحديث عن الدعوة الجماعية والعمل الجماعي.

(٢) انظر د/صلاح الصاوي: مدخل إلى ترشيد العمل الإسلامي- (ص٢٠٤) .

وقطعوا آفاقًا بعيدة ما بين شرق الهند وغربها وشمالها وجنوبها ركبانًا ومشاة، فتغيرت أخلاقهم وتحسنت أحوالهم واشتعلت بواطنهم الدينية، وانتشرت الدعوة في الهند وباكستان من غير نفقات باهظة ومساعدات مالية ونظم إدارية، بل بطريقة بسيطة تشبه طريقة الدعوة في الإسلام، وتذكر بالدعاة المسلمين المجاهدين المؤمنين الذين كانوا يحملون في سبيل الدعوة والجهاد متاعهم وراءهم وينفقون على أنفسهم ويتحملون المشقة محتسبين متطوعين"[1].

وبذلك تستقر أركان هذه الدعوة بظهور أتباعها، وظل الأمر على هذه الحال من النشاط إلى أن توفى الشيخ محمد إلياس في رجب ١٣٦٣هـ أو ١٣٦٤هـ- ١٩٤٤م[2]، بعد أن أرسى الأسس التي ترتكز عليها الجماعة، وكانت وفاته في بلدة نظام الدين ودفن بها -رحمه الله.

وتبعه على نفس النهج ابنه الشيخ محمد يوسف الذي جاب أقطار العالم الإسلامي لنشر هذه الدعوة وتوطيد أركانها، ووصف بشخصيته الفذة وهمته العالية في الدعوة وعبادته الخاشعة وكثرة دعائه، وكان من مؤلفاته كتاب حياة الصحابة الذي يعد من أهم كتب التبليغيين زار -رحمه الله- المدن الكبرى في باكستان الشرقية والغربية كلتيهما، وعقد فيها اجتماعات كبرى لا نظير لها في التاريخ القريب.

وبعد وفاة الشيخ محمد يوسف -رحمه الله- في أول أبريل ١٩٦٥م تبعه الشيخ إنعام الحسن، وهو الأمير الثالث للجماعة بعد وفاة الشيخ محمد يوسف كان مقره الهند بمسجد نظام الدين، صاحب الشيخ إلياس في بدايته، وكان صديقًا للشيخ محمد يوسف، وكانا متقاربين في الدعوة وتوفى سنة ١٤١٦هـ، ولم يخلفه أحد لأسباب غامضة، والآن يتولى

---

(١) خالد بن عبدالرحمن: وجوب الدعوة إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة ومنهاج جماعة التبليغ في ذلك، دار ثابت- (ص٦٤).

(٢) انظر: د. سعد الدين السيد صالح: الفرق والجماعات الإسلامية المعاصرة وجذورها التاريخية، دار أحد، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م) - (ص٣٦٥)- حسين جابر: الطريق إلى جماعة المسلمين، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ-١٩٨٨م) - (ص٢٩٥).

أمر الجماعة مجلس شورى[1].

عقيدة الجماعة:

تأثرت هذه الجماعة منذ نشأتها بالصوفية، فنسب مؤسسها الشيخ إلياس –رحمه الله– إلى الطريقة الجشتية، وهي إحدى الطرق الصوفية المنتشرة في الهند، تبدأ سلسلتها من خواجه معين الدين الجشتي[2] فهو محمد إلياس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي الديوبندي الجشتي.

ورغم نسبة رئيس الجماعة إلى إحدى الطرق الصوفية إلا أن الجماعة في عمومها لا ترتبط عقيدتها بعقيدة مؤسسها بقدر ارتباطها بالمكان الذي تتواجد فيه، فترى منهم من يحمل عقيدة السلف لتواجده في بيئة أهل السنة والجماعة المنتهجين منهج السلف الصالح، وترى منهم من لا يرى بأسًا بعقيدة الأشاعرة والماتريدية، وقد ترى منهم من لا يعرف شيئًا عن العقيدة أصلا لجهله أو لحداثة سنه بين الجماعة، ولعل سبب ذلك راجع إلى أن دعوتهم قائمة على البعد عن الخلافات العقدية كما ذكر الشيخ الألباني –رحمه الله[3].

مبادئ الدعوة عند الجماعة:

قرر مؤسس الجماعة الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ستة مبادئ قامت عليها هذه الدعوة، وهذه المبادئ هي:

١-الكلمة الطيبة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

٢-إقامة الصلاة ذات الخشوع.

---

(١) انظر: سليم الهلالي: الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، دار البصيرة، الإسكندرية - (ص٣٥٦)- الفرق والجماعات الإسلامية المعاصرة وجذورها التاريخية- (ص٣٦٥) .

(٢) انظر: الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة- (ص٣٥٦) .

(٣) انظر: الفتاوى الإماراتية للألباني- س ٧٣- (ص٣٨)- د/صلاح الصاوي: مدخل إلى ترشيد العمل الإسلامي- (ص٢٠٤) .

٣-العلم والذكر.

٤-إكرام المسلمين.

٥-الإخلاص

٦-الدعوة إلى الله والخروج في سبيل الله[1].

ويقوم البرنامج الدعوي على تحقيق النقاط التالية:

أولا: الاجتهاد في تحقيق المبادئ الستة السابقة.

ثانيا: الاجتهاد في العمل بالدعوة إلى الله والعلم والتعلم والعبادات والخدمة وأما الدعوة فعلى أربع وجوه:

١-دعوة فردية.

٢-دعوة اجتماعية.

٣-دعوة عمومية.

٤-دعوة خاصة.

وهي لأربع طبقات:

١-العلماء وذلك بمحبتهم وإكرامهم.

٢-الوجهاء وهم أصحاب الجاه كالأمراء والحكام.

٣-القدماء وهم الذين خرجوا في الدعوة.

٤-عامة المسلمين.

وأما العلم والتعلم يكون في الفضائل فقط، والاعتماد في ذلك على كتب الفضائل كرياض الصالحين للنووي، وحياة الصحابة للكاندهلوي، والترغيب والترهيب للمنذري، والأدب المفرد للبخاري.

ويدخل في العلم والتعلم مذاكرة العشر سور الأخيرة من القرآن بين الخارجين،

---

(١) وجوب الدعوة إلى الكتاب والسنة - (ص١١٩)- الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة- (ص٣٧٨)- عصام مرعي: القول البليغ في نصح جماعة التبليغ- دار أهل السنة- توزيع المكتبة الإسلامية- (ص١٨).

والآداب العامة كأدب الطعام والشراب والمنام وقضاء الحاجة.. إلى غيرها من السنن.

وأمـــا العـــبادات فيكون التركيز على المحافظة على جزء من القرآن في اليوم والصلاة المكتوبة والسنة، وقيام الليل والأذكار الصباحية والمسائية.

وأما الخدمة فيدخل فيها خدمة النفس وخدمة الجماعة الخارجة وخدمة الأمير وخدمة أهل البلدة أي المسلمين عامة.

ثالثًا: ونخرج بأربعة: النفس – المال- الوقت- الافتقار إلى الله.

رابعًا: ونلتزم بطاعة الأمير في غير معصية، والصبر والتحمل وحرمة المساجد، وتقديم العمل الجماعي على الانفرادي.

والأعمال الجماعية هي:

١-حلقة التعليم ٢-بيان الفجر ٣-بيان المغرب والعشاء

٤-قراءة في حياة الصحابة ٥-آداب الطعام والشراب ٦-آداب السفر

٧-المشورة ٨-النوم.

خامسًا: ونقلل من أربع: الطعام – المنام- قضاء الحاجات- الخروج من المسجد.

سادسًـــا: ونتـــرك في الخروج أربعة أمور: الإسراف- الإشراف- السؤال- استعمال حاجة الغير إلا بإذنه.

ونجتهد بالخروج على الترتيب التالي:

١-أربعة أشهر في أقرب فرصة.

٢-أربعون يومًا في السنة.

٣-ثلاثة أيام في الشهر.

٤-جولـــتان في الأســـبوع (جولة مقامية أي في نفس المنطقة ومحيط الداعي، وجولة انتقالية إلى القرى المجاورة).

٥-حلقتان في اليوم (حلقة في المسجد من الفضائل وحلقة في الترتيب).

٦-تفـــريغ ســـاعتين ونصف لعيادة المريض وزيارة الأرحـــام، والأذكـــار.... إلى غـــير ذلك.

٧-حضور المشورة وحضور يوم الخميس ليلة الجمعة للمناقشة في فكر الدعوة.

وقبل كل عمل علينا أن نبين آدابه مثل الطعام والشراب والمنام والسفر وقضاء الحاجة وزيارة العلماء والوجهاء وآداب المساجد والسلام.

وعلينا أن نربط الجدد، وهم الذين لم يخرجوا من قبل بالإخوة القدماء الذين قضوا فترة من الزمن في الخروج[1].

طريقة تنفيذ الخروج:

تبدأ أعمال الخروج فور ركوبهم وسيلة السفر بقراءة القرآن والحديث، وبعد وصولهم المسجد وأداء تحيته يجتمعون للشورى حول ترتيب عملهم وتوزيعه خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة على الوظائف التالية:

١-إعداد الطعام ويقوم به اثنان منهم أو ثلاثة.

٢-زيارة إمام المسجد ومركز الشرطة والمهمين من أهل الحي.

٣-إمارة حلقة التعليم.

٤-التعريف بالجماعة بعد صلاة العصر.

٥-درس العصر.

٦-التذكير بآداب الجولة.

٧-درس المغرب.

٨-درس العشاء.

٩-التذكير بآداب الطعام وآداب النوم.

١٠-مذاكرة الفجر.

وينتظم عملهم على النحو التالي:

أولا: حوالي الساعة التاسعة صباحًا يجتمعون على "حلقة التعليم" ويقتصر على:

١-تلاوة العشر سور الأخيرة من القرآن يشارك كل منهم في القراءة والاستماع.

---

(١) وجوب الدعوة إلى الكتاب والسنة - (ص١١٩-١٢١).

٢-قـــراءة بعـــض الأحاديث النبوية في فضائل الأعمال من كتاب "رياض الصالحين" للـــنووي خاصًا بالعرب... ومن كتاب "تبليغي نصاب" لمحمد زكريا الكاندهلوي خاصًّا بالعجم.

٣-الـــتدريب علـــى إلقـــاء الموعظة بتعداد الأصول الستة أو الصفات الست التي مر ذكرها إجمالاً أو تفصيلاً.

٤-تدارس آداب وأصول الجماعة وهي كالتالي:

-الالتزام بأربع: طاعة الأمير، الاشتراك في الأعمال الجماعية، الصبر والتحمل، نظافة المسجد.

-الاشتغال بأربع: الدعوة، العبادات، حلقة التعليم، الخدمة.

-التقليل من أربع: الطعام، المنام، الكلام، وقت قضاء الحاجات (الخاصة).

-تجـــنب أربـــع: الإسراف، الإشراف، السؤال، استعمال ملك الغير إلا بإذنه، وقد سبقت الإشارة إلى هذه النقطة وسابقتها.

-عـــدم الخـــوض في أربـــع: المسائل الفقهية، المسائل السياسية، أوضاع الجماعات الأخرى، الجدال.

-عـــند زيارة الحكام تبين لهم الأحوال (نشاط الجماعة)، والعلماء يطلب منهم الدعاء والمثقفون يدعون بدون إلحاح، ويركز في الدعوة على العوام.

ثانـــيا: بعد صلاة الظهر يتولى أحدهم تعريف المصلين بأهداف خروجهم وأنهم جاءوا مـــن بلاد وقبائل ومهن شتى لا يريدون غرضًا دنيويا، وإنما زاروهم لله ولدين الله راجين منهم أن ينصروهم في هذا السبيل، وبعد التعارف يكون الغداء والراحة.

ثالـــثًا: بعد صلاة العصر يلقي أحدهم موعظة قصيرة يحث فيها المصلين على الاشتراك مع الخارجين في زيارات خاصة في البيوت لمن يرون حاجتهم للزيارة.

رابعًـــا: قـــبل المغرب بساعات يجتمع الخارجون للاستماع إلى آداب الجولة العامة، ويخـــتار منهم أميرهم جماعة أو أكثر للتجول على الناس في الأماكن العامة: الشارع، المحل الـــتجاري، المقهـــى، والـــنادي، ودعوة من يلقونه إلى المسجد بعد تذكيره بغاية وجوده

ومستقبله الأخروي، ويعين من بينهم أميرًا ودليلاً ومتكلمًا ويبقى واحد منهم منعزلاً لذكر الله في المسجد سببًا لنجاح الجولة، وآخر لاستقبال المستجيبين، وثالث مع بقية الخارجين في تلاوة لفضائل الأعمال.

خامسًا: بعد صلاة المغرب مباشرة يعلن أحدهم عن الموعظة الرئيسية بعد صلاة النافلة بالصيغة التالية: "نعلم جميعًا أن نجاحنا وفلاحنا في الدنيا والآخرة، باتباع أوامر الله وعلى طريق رسوله، من أجل ذلك إن شاء الله نصبر أنفسنا قليلاً بعد السنة الراتبة للاستماع بالتفصيل إلى كلام الدين والإيمان".

وبعد النافلة يتكلم أحدهم في نطاق الأصول الستة أو الصفات الست مثيرًا العاطفة والغيرة الدينية مستعينًا ببعض الآيات والأحاديث "الضعيفة غالبا" والقصص (الإسرائيلية غالبًا)، ويختم الدرس بالهدف الأساسي له: (التشكيل)- ويعنون به دعوة الحاضرين وتسجيل المستجيبين منهم للخروج في سبيل الله- ويحفزهم أحيانًا كثيرة بقوله: "مستعدون إن شاء الله!" ثم يقوم بالدعاء الجماعي.

سادسًا: بعد صلاة العشاء يقرأ أحدهم قصة أو أكثر من كتاب "حياة الصحابة" لمحمد يوسف الكاندهلوي بقصد ألا يستكثر الدعاة جهادهم ونفقتهم ولحثهم على بذل المزيد.

سابعًا: يذكرهم واحد منهم أو أكثر بآداب الطعام والنوم قبل انصرافهم إليهما، وربما ذكروا في هذا الوقت أو غيره بآداب المساجد وآداب الغسل.

ثامنًا: قد يقتسمون ساعات الليل في التهجد، ويختلف جهدهم باختلاف أفرادهم، ولكن على الجميع الاستيقاظ قبل نصف ساعة على الأقل من أذان الفجر لقيام شيء من الليل وصلاة الصبح.

تاسعًا: بعد الصلاة يحدثهم أحدهم عن عظمة الله وعن الدار الآخرة، وربما تدارسوا الأصول أو الصفات، أو أعادوا تلاوة العشر سور القصار من القرآن حتى الشروق.

عاشرًا: بعد انتشار الشمس يصلون سبحة الضحى، ويتناولون طعام الإفطار وينالون قسطًا من الراحة حتى الساعة التاسعة تقريبًا حيث يجتمعون لحلقة جديدة من التعليم

والتشاور في الأعمال الأربع وعشرين ساعة التالية"[1].

أهم الانتقادات الموجهة إلى هذه الجماعة:

١-عدم الخوض في الأمور السياسية؛ أو المشاركة في الحياة السياسية على نحو ما نجد في جماعة الإخوان المسلمين؛ إذ السياسة المتعلقة بالدين والمسلمين عندهم ليست من الدين، ويحبكون في ذلك "عبارات خاوية على عروشها مثل "السياسة أن تترك السياسة" وعلى شاكلتهم المتصوفة "السياسة تياسة"[2].

٢-عدم نهيهم عن المنكر:

تعاملت هذه الجماعة مع واجب الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر تعاملاً سلبيا جدًّا، بل وجعلوه من أصول دعوتهم، وذلك زعمًا منهم أنه ينفر الناس من دعوتهم ويثير غضب المسئولين عليهم[3].

ومعلوم أن الذي يثير غضب المسئولين هو ترك الحكمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس الأمر والنهي نفسه.

٣-قيام دعوتهم على التوسع الأفقي الكمي لا النوعي وإصلاح الفرد من زاوية خاصة، وهي الزاوية الروحية دون التركيز على التربية الشاملة التي تتناول التربية العقلية عن طريق العلم الشامل بالإسلام مما أدى إلى انتشار الجهل بين قطاع كبير من هذه الجماعة وخصوصًا طبقة العوام والأدميين[4].

٤-لا يعرف للجماعة علماء يرجع إليهم، وذلك لقلة اهتمامهم بالعلم الشرعي بمفهومه الشامل.

٥-جهلهم بمسائل العقيدة، ومبايعة كبار مشايخهم على الطرق الصوفية مثل الجشتية

---

(١) الجماعات الإسلامية نقلاً عن "رأي آخر في جماعة التبليغ"- (ص١٠-١٤).

(٢) الجماعات الإسلامية- (ص٤٠٢-٤٠٣).

(٣) انظر: القول البليغ في نصح جماعة التبليغ- (٣٨-٤١).

(٤) الفرق والجماعات الإسلامية- (ص٣٧٤).

والقادرية والسهروردية والنقشبندية[1].

٦-اهتمامهم بعلم الفضائل وإهمالهم علم الأحكام والتوحيد والمسائل.

٧-المغالاة فيما أسموه الخروج في سبيل الله واعتباره الجهاد الأكبر.

ثمار الجماعة وأثر دعوتها:

١-كان للجماعة آثار كبيرة على الدعوة الإسلامية في العالم الإسلامي، وخصوصًا في المغرب والجزائر وتونس ومصر وكثير من شباب الجماعات الإسلامية عرف الاستقامة والالتزام عن طريق جماعة التبليغ ثم تطور أمره بعد ذلك.

٢-كان بعدهم عن السياسة والاقتصاد والاجتماع سببًا من الأسباب التي فتحت أمامها أبواب الدعوة للإسلام.

٣-كان للجماعة تأثير على العالم الخارجي فعن طريقها انتشر الإسلام بين العمال المسلمين الذين كانوا قد انسلخوا عن دينهم، فبنيت المساجد وأقيمت الصلاة وظهر الزي الإسلامي ودخل العديد من النصارى في الإسلام، الأمر الذي ما كان يتم إلا بفتح إسلامي قوامه السلاح والقتال.

٤-المران على الدعوة والتنظيم والاجتماعات المتكررة، كل ذلك أكسبهم دقة التنظيم في أمورهم دون أدنى تكلف أو ملل وفي إمكان الجماعة أن تعقد وتنظم لأكبر اجتماع، الذي لو قامت به أي جهة غيرهم لتكلفت نفقات باهظة واحتاجت لزمن طويل[2].

٥-شيوع الدعوة وانتشارها وبلوغها الآفاق يقول الشيخ أبو بكر الجزائري: "كما عرفتها بفرنسا وبلجيكا وهولندا وألمانيا وبريطانيا، وسمعت عنها بأمريكا وفي القارة الهندية وشاهدت الآثار دعوتها في الشرق الأوسط.

---

(١) الجماعات الإسلامية نقلاً عن رسالة إنعام الحسن الجوابية على رسالة الشيخ الحصين- (ص٣٨١).

(٢) انظر: الفرق والجماعات الإسلامية المعاصرة وجذورها التاريخية- (ص٣٧٠-٣٨٠)- أيمن أبو شادي: نظرة علمية في أهل التبليغ والدعوة- أجياد، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ-١٩٩٨م)، (١/٨٦-٨٩).

ومن آثار تلك الدعوة ما يلي:

١-إقام الصلاة ذات الخشوع.

٢-إظهـــار الشعائر الدينية كالحجاب للنساء وإعفاء اللحية في الرجال وتغطية الرأس بالعمامة ونحوها.

٣-ترك الشركيات والخرافات قولاً وعملاً واعتقادًا.

٤-الاســـتجابة لدعـــوة التوحيد والعمل بالكتاب والسنة، إذ كانوا في شمال إفريقيا وأوربـــا يـــتابعون دروســـي مـــن بلد إلى بلد طيلة ما أنا مقيم في الإقليم ألقي مواعظي ودروسي، وهي تمتاز بحمد الله بالعقيدة السلفية ومحاربة الشرك والبدع والضلالات.

لقـــد مضت عشرات السنين والمسلم لا يستطيع في أوربا أن يظهر إسلامه فضلاً عن أمريكا، فأكثر العمال سكيرون تاركون للصلاة، متفرنجون لغة وزيًّا وخلقًا وسلوكًا حتى جاء الحق تبارك وتعالى بجماعة التبليغ تحمل هداية الإسلام عقيدة وعبادة وسلوكًا، وذلك في صـــمت ويـــسر وســـهولة، فوجد الإسلام في أمريكا وأوربا بصورة ما كان يتصور وجودها فضلاً عن رؤيتها بغير جهاد السيف.

وآثـــار دعـــوة التبليغ في القارة الهندية لا تقل عنها في غيرها، فقد رجع المسلمون إلى الإســـلام بعـــد التنكـــر له والخروج عن تعاليمه والضياع في متاهات البدع والخرافات وصنوف الشركيات[1].

مقترحات علمية لهذا الاتجاه الدعوي:

حتى لا يتسع البون بين هذا الاتجاه وغيره من اتجاهات العمل الإسلامي، نظرًا للطابع الخاص الذي يطبع به أفراد هذا الاتجاه بما يميزه عن غيره من الاتجاهات فإلى أفراد الجماعة وأمرائها نقدم هذه المقترحات:

١-التكامل مع الآخرين:

وذلك يكون باعتبار أن هذه الطريقة في الدعوة وسيلة من وسائل العمل لإقامة شرع

---

(١) نظرة علمية في أهل التبليغ- (١/١١٧).

الله في دنـــيا الناس وليست هي الإسلام كله، ولكنها الخطوة الأولى التي يجب أن تتكامل مـــع خطوات بقية الدعاة إلى الله، فبهذا يمكن أن يمتهد السبيل إلى السكوت المرحلي عن الأغلاط المنتشرة بين صفوفهم.

٢-الـــبراءة مـــن التعصب لذاتها وأمرائها ومنهاجها، وإذا تم ذلك امتهد سبيل لسد النقص الناشئ لدى هذا الاتجاه.

٣-الاهـــتمام بـــالعلم الشرعي، فلابد أن يتسلح فريق من هذا الاتجاه بالعلم الشرعي الصحيح حتى يستطيعوا حراسة مسيرتهم فلا تجتاحها البدع والخرافات عن الجادة.

٤-شمـــول برامجهم في الدعوة لما لا يصح عقد الإسلام إلا به، فلا يصح عقد الإسلام ابـــتداء إلا بالالتزام المجمل بالتوحيد والبراءة المجملة من الشرك، ولا تمتد أحكام هذا العقد إلا بالاســـتقامة على ذلك، فلا يتوجه لشعيرة من الشعائر إلا إلى الله، ولا ترد الأمور عند التنازع إلا إليه، ولا يوالي إلا في ذاته ﷻ، فيجب أن يتضمن البرنامج الدعوي هذا القدر الذي لا يصح الإسلام إلا به، وهذا القدر يمكن تبسيطه حتى يتمكن العامة من إدراكه بلا عـــنت ولا مـــشقة. ولا يجمل من الدعوة أن تقر أحدا من أفرادها على شيء من طوارق الـــشرك أو أن تتساهل في هذا مهما تكن المبررات، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُـــشْرَكَ بِـــهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾[1] وقال: ﴿**وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[2].

٥-التزام أفراد الجماعة بأصول العمل الجماعي وشروطه وتتلخص فيما يلي:

أ-أن يكـــون الاجـــتماع بينهم على منهاج النبوة لا غير على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه في العقيدة والمنهج والسلوك، وأن يلزموا ما أجمع عليه المجتهدون من أهل السنة والجماعة.

ب-أن يتجـــرد الأفراد من آفات أهل هذا الزمان، من شح مطاع وهوى متبع ودنيا

---

(١) النساء:٤٨.

(٢) الأنعام:٨٨.

مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه وغير ذلك مما يعوق العمل الجماعي.

ج-ألا يكـــون اجتماعهم على أصول أو أفكار أو مبادئ أو رأي أو اجتهاد أو عمل يفارقـــون بـــه جماعة المسلمين، ويخالفون به سوادهم الأعظم من أهل الحل والعقد، سواء كان ذلك في المنهج والاعتقاد أو كان في الرأي والحرب والمشورة.

د-أن يجـــتمعوا علـــى أنهم مجموعة من المجموعات العاملة للدين تحت جماعة المسلمين العامـــة، وليسوا هم وحدهم جماعة المسلمين، لذا فهم لا ينكرون على الخارج عنهم فلا يكفرونه ولا يؤثمونه؛ لأنهم لا يرون مجموعتهم لازمة لأفرادها ولا لغيرهم من المسلمين.

٥-ألا يجعلـــوا لأفـــراد العمل تميزًا عن غيرهم ممن ليس في هذا العمل بحيث لا يكون للحليف منزلة أعلى من غير الحليف من جهة المحبة والولاء والنصرة.

٦-ألا يتعـــصبوا لشيخهم أو لجماعتهم أو لأعمالهم التي يعملونها فلا يبالون أن يعمل المـــسلم مع أي جماعة من الجماعات الراشدة، ممن لزمت ما عليه جمهور الأمة و لم تفرق كلمتها.

وعليهم ألا يتعصبوا لآرائهم بأن يستمعوا لآراء المخالفين لهم بغرض الوصول إلى الحق والاجتماع عليه، فإن اجتمعت الكلمة فبها ونعمت وإلا فليدعوا ما اختلفوا فيه، وليقفوا عند ما اجتمعت عليه كلمتهم.

٧-ألا ينكـــروا مـــا مـــع غيرهم مـــن الحـــق والعمـــل المشـــروع، ولا ينكـــروا فـــضلهـــم ومـــا يقدمـــونه للأمة من خير بل يثنون على المحسن في إحسانه، وينصحون للمـــسيء في إساءته، ولا يمنعون من مشاركة غيرهم في أعمالهم المتفق عليها بين الأمة ما أمكنهم ذلك.

٨-ألا يتميزوا عن جماعة المسلمين العامة باسم أو رسم أو شعار ما لم يكن ذلك على ســـبيل التناســـق والـــتعاون والتآلف والتعاضد، ولا يكون ذلك إلا باجتماع كلمة هذه المجموعات والجماعات على متبوع مطاع يوزع عليها أعمالها ويؤلف بينها، فيكون التميز لتقـــسيم الأعمـــال والأدوار، فيعـــرف كل فريق بعمل لا يعارض به غيره، بحيث يكون اختلاف الاسم والشعار دالاً على اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد.

٩-ألا يعطي أمير العمل اختصاصات الخليفة أو نائبه كوجوب لزومه ولو كان جائرًا أو صاحب بدعة أو هوى، أو لزوم طاعته خارج دائرة العمل الذي تم الاجتماع عليه[١].

أو غير ذلك مما هو من اختصاص الخليفة أو نائبه بحيث لا يخلط بين هذه الإمارة الجزئية والإمارة العامة[٢].

وأخيرًا.. فبعد هذا العرض البسيط لجماعة التبليغ والدعوة -بمالها وما عليها- نكون قد انتهينا من عرض أحد الأمثلة للاتجاهات الدعوية التي ظهرت كرد فعل للحضارة الغربية والاستعمار الأوربي بكل خبثه، وحملت شعار الدعوة رغم كل الصعوبات وانتهجت لنفسها منهجًا وطريقة بيناها في بحثنا هذا.

---

(١) بل ينبغي أن ينتهي التعاقد والاجتماع بنهاية العمل، ولا يبدأ أصلاً إلا بعد الاتفاق على عمل مشروع لا يفرق جماعة المسلمين، ولذلك فهذه الجماعة الجزئية أو البيعة الجزئية يمكن أن نسميها بجماعة العمل أو إمارة العمل قياسًا على جماعة السفر وإمارة السفر؛ لأن هذا هو دليلها، فينبغي الوقوف بها عند حدود الدليل، فالمسوغ لإنشائها هو العمل فلا يحل أن توجد قبله ولا بعده.

(٢) دراسات حول الجماعة والجماعات- (ص٤١٥-٤١٧) بتصرف.

جماعة الإخوان المسلمين[1]

عوامل النشأة:

نشأت جماعة الإخوان المسلمين بمصر عام ١٩٢٨م نتيجة لعدة عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية وتعليمية وتربوية، مرت بها مصر منذ الاستعمار البريطاني لأراضيها.

العوامل السياسية:

وتتمثل في وجود الإنجليز على أرض مصر وهيمنته على كل نظم المجتمع بدءًا بالاستعمار المادي إلى الاستعمار الفكري..

كذلك في وجود الملكية الحاكمة وممارستها استبدادًا شبه مطلق في مصر.

وتأتي الأحزاب السياسية المصرية كقوة ثالثة أو كعامل سياسي ثالث بعد الإنجليز والملك، من هذه الأحزاب: ١-حزب الأغلبية الشعبية "الوفد"، والأحزاب المنشقة عنه مثل: الأحرار الدستوريون، السعديون، الكتلة السعدية.

٢- أحزاب القصر والاتحاد والشعب.

٣- الحزب الوطني.

وقد سيطر كبار الملاك ورجال المال على هذه الأحزاب جميعًا ماعدا الوطني، وانشغل أعضاؤها بلعبة السلطة والانتخابات، وتبنيها النظام الغربي العلماني وأساليبه السياسية، وقد تميزت هذه الأحزاب بالتصارع والاقتتال والانقسام والفرقة مما أدى إلى ضعف الأمة وتبديد قواها وفساد أخلاق أبنائها.

العوامل الاجتماعية:

وقد برزت في ظاهرة الاحتلال وما صاحبها من تحطيم للأخلاق والأعراف والعادات

---

(١) عرض هذا التعريف لا يقتضي تأييدًا لهذه الجماعة ولا لغيرها من الجماعات، وراجع ما كتبناه بشأن موقف المسلم من هذه الجماعات في الفصل الخاص بالحديث عن الدعوة الجماعية والعمل الجماعي.

الإسلامية، وحركات التنصير التي قامت بحملات تنصيرية واسعة النطاق في مختلف المحافظات والقرى الإسلامية.

كما برزت في حركة تحرير المرأة التي بدأها قاسم أمين في كتابيه: تحرير المرأة ١٨٩٩م والمرأة الجديدة ١٩٠٠م، ونجم عنها تغيير كبير في سلوك المرأة المسلمة وأخلاقها.

ومن صور التغيير هذه:

-خروج المرأة إلى الشارع متبذلة سافرة.

-شيوع الاختلاط بالرجال في الميادين الاجتماعية المختلفة.

-شيوع البغاء الرسمي والترخيص له.

-انتشار السفور والعري على صفحات الجرائد والمجلات والمراسلات.

وبرزت كذلك في النظام الطبقي الذي تميز به المجتمع المصري آنذاك، وأدى إلى وجود تفاوت حاد بين الطبقات العليا من كبار ملاك الأراضي الزراعية، وأصحاب وسائل الإنتاج من الشركات التجارية والصناعية والبنوك والمؤسسات المالية، والطبقات المتوسطة والدنيا من المثقفين والعاملين بالحكومة والفلاحين وصغار العمال. الأمر الذي أدى إلى انتشار البؤس والفقر بين أصحاب هذه الطبقات الأخيرة.

العوامل الاقتصادية:

وتتمثل في الاستعمار الاقتصادي وسيطرة الشركات الأجنبية على الاقتصاد المصري، وارتباط الأخير بالاقتصاد البريطاني، واعتماده على أذونات الخزانة البريطانية، الأمر الذي أدى إلى تخلف الاقتصاد المصري وانخفاض مستوى المعيشة إلى درجة كبيرة...

العوامل الفكرية:

وتتمثل في سيطرة تيارات فكرية مناهضة للإسلام على الفكر والثقافة، من هذه التيارات:

-التيار التغريبي الليبرالي بزعامة سلامة موسى وعلي عبدالرازق وطه حسين، والذي يدعو إلى الاقتداء بالنموذج الغربي في كل شيء.

-التيار الإقليمي بزعامة لطفي السيد وسلامة موسى وطه حسين، وأفكاره هي نفس أفكار التيار التغريبي.

-تيار التغريب الشيوعي الذي تكونت حلقاته في مصر بعد الثورة الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧م، والذي حمل برامج المعالم الماركسية الهدامة.

الأوضاع التعليمية والتربوية:

وتتمثل في ضعف النزعة القومية في التعليم المصري؛ حيث ظل التاريخ الأوروبي غالبًا على المنهج، وأهمل التاريخ المصري والإسلامي.

٢-ضعف الاهتمام باللغة العربية في حين الاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية.

أهداف الجماعة:

وهكذا تضافرت هذه العوامل جميعًا في إفراز جماعة الإخوان المسلمين في مصر، وقيامها بثورة إصلاحية شاملة لكل مناحي الحياة، يتضح ذلك من خلال رسائل الأستاذ البنا مؤسس الجماعة ومرشدها الأول الذي قسم أهداف الجماعة إلى:

أهداف قريبة وهي المساهمة في الخير العام والخدمة الاجتماعية وتشمل:

-إصلاح الفرد.

-بناء الأسرة.

-إرشاد المجتمع.

أهداف بعيدة: وهي الإصلاح الشامل والتغير والتبديل للأوضاع القائمة وتشمل:

-إصلاح الحكومة.

-إعادة الخلافة.

-تحقيق السيادة.

-الأستاذية[١].

---

(١) انظر: مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا- دار التوزيع والنشر الإسلامية- القاهرة- (١٤١٢هـ-١٩٩٢م)- (ص٢٠٤) وما بعدها.

ولعل هذا الأمر هو الذي حدا بالإمام البنا أن يعرف الإسلام بقوله: "الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعًا، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة، وهو حق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء"[1].

وسائل الجماعة:

أما الوسائل الدعوية أو الحركية التي وضعتها الجماعة لتحقيق أهدافها، فقد جاءت منسجمة تمامًا مع الواقع المصري باعتبار نشأة الجماعة والواقع العربي الإسلامي، باعتبار نفوذها وانتشارها، وذلك كالآتي:

الوسيلة الأولى: الدعوة والبيان (الوعظ والإرشاد)

وهذه الوسيلة تتبع مع الفرد والجماعة ومهمتها:

-المساهمة في الخير العام والخدمة الاجتماعية.

-تعليم الأميين وتلقين الناس أحكام الدين.

-الوعظ والإرشاد.

-إقامة المنشآت النافعة.

-تكوين رأي عام، وتصحيح فهم المسلمين لدينهم.

-استخدام النشرات والبيانات والمؤتمرات والبعثات في نشر الدعوة.

-محاربة الجهل والمرض والفقر والرذيلة.

وقد تحققت هذه الوسيلة بجلاء إبان نشأة الجماعة في الثلاثينيات والأربعينيات، من القرن الماضي[2].

---

(١) السابق- (ص٣٥٦).

(٢) انظر بتوسع: محمد شوقي زكي: الإخوان المسلمون والمجتمع المصري- دار الأنصار- القاهرة- الطبعة الثانية- (١٤٠١هـ-١٩٨٠م)- (ص١٣٨) وما بعدها.

الوسيلة الثانية: التربية (الإعداد والتكوين):

وتقتصر هذه الوسيلة على أعضاء الجماعة أنفسهم وتتم من خلال الأسر والكتائب والرحلات والدورات والمؤتمرات وغيرها.

الوسيلة الثالثة: العمل السياسي (النضال الدستوري):

وتعد هذه الوسيلة علامة بارزة على جماعة الإخوان بل تعد موضع انتقاد من قبل البعض؛ حيث يرون أنها جماعة سياسية تعنى بالسياسة على حساب الدين... إلى آخره.

والحق أن اهتمام الإخوان بالسياسة جاء متزامنًا ومتماشيًا مع سوء الأحوال السياسية في مصر وفي العالم العربي والإسلامي كله، كما أوضحنا من ذي قبل؛ لذا عملت الجماعة على إصلاح الشئون السياسية الداخلية في مصر وغيرها من البلدان الإسلامية، ودفعت بأعضائها للمشاركة في الحياة السياسية، ونافست للدخول في المجالس النيابية والوزارات، واستطاعت بالفعل أن تحصد مقاعد كثيرة في دول كالأردن والبحرين والكويت والمغرب والسودان والجزائر واليمن ومصر وغيرها.

كما شاركت الجماعة في انتخابات النقابات المهنية والاتحادات الطلابية، وحققت نجاحًا ملموسًا داخل مصر وغيرها من البلدان العربية والإسلامية.

وهكذا اعتمدت الجماعة هذه الوسيلة في محاولة لإصلاح شئون الدول الإسلامية الداخلية.

وقد تلجأ الجماعة إلى تغيير هذه الوسيلة حين ترى مناسبتها للواقع، من ذلك أنها قد تقاطع الانتخابات التشريعية -كما حدث في مصر والجزائر مثلاً- حين ترى أن ذلك أصلح للدعوة.

الوسيلة الرابعة: الجهاد:

ويعد الجهاد المسلح وسيلة أساسية من وسائل الإخوان التي تتخذها الجماعة في رد العدوان على الأمة الإسلامية، ويدل على ذلك هتافها الدائم "الجهاد سبيلنا".

وقد تحققت هذه الوسيلة إبان الاحتلال البريطاني لمصر؛ حيث قاوم الإخوان الإنجليز في مصر وقناة السويس، كما شاركت بكتائبها في الجهاد المسلح في فلسطين

عـــام ١٩٤٨م، والـــيوم تقـــف حركة المقاومة الإسلامية "حماس" إحدى فصائل جماعة الإخوان في مواجهة العدو اليهودي على أرض فلسطين.

هـــذه هي أهم الوسائل الدعوية التي ارتكزت عليها جماعة الإخوان المسلمين في مصر لمعالجة الأوضاع القائمة وأسلمة المجتمع المصري[١].

انتقادات ومآخذ على جماعة الإخوان:

وقد أخذ على هذه الجماعة العديد من المآخذ والانتقادات منها:

الـــتورط في المزالق السياسية، الدخول في مواجهة غير حكيمة مع الأنظمة الحاكمة، تهـــوين بعض قادتها وزعمائها من بعض مسائل العقيدة والميل نحو التصوف، التقارب مع الـــشيعة وغـــير ذلـــك من المسائل التي توجه إليهم سهام النقد فيها ويحاول أئمة الجماعة ومنظريها دفعها وردّها"[٢][٣].

---

(١) انظر: د/عبدالحميد الغزالي: حول أساسيات المشروع الإسلامي لنهضة الأمة- دار التوزيع والنشر الإسلامية- القاهرة- (١٤٢١هـــ-٢٠٠٠م)- (ص١٣٣) وما بعدها.

(٢) انظر في ذلك: د/صلاح الصاوي: مدخل إلى ترشيد العمل الإسلامي- الآفاق الدولية للإعلام- (ص١١٣-١٢٣).

(٣) مـــن الكتب التي تدفع الشبهات عن الجماعة: شبهات وردود- دكتور توفيق الواعي، مدخل إلى جماعـــة الإخـــوان المسلمين- سعيد حوى، الإمام الشهيد حسن البنا بين عطاء الرسائل والسهام السوداء- للدكتور جابر قميحة.

تعريف بالدعوة السلفية

نحب أن ننبه ابتداء أننا لا نعني بالدعوة السلفية اتجاهًا بعينه من الاتجاهات التي ترفع هذا الشعار في واقعنا المعاصر، وإنما نعني بها دعوة الكتاب والسنة، والدين الصحيح والإسلام النقي، وهي اتباع سبيل المؤمنين من السلف الصالح وهم أصحاب النبي ﷺ والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وهذا يعم كل من تمسك بهذه الأصول فلا يقيد النعت بهذه الصفة بطائفة بعينها وإنما يعم كل من اتصف بهذه الأصول سواء تسمَّى بهذا اللقب (السلفي) أم لم يتسم به.

وهم بذلك الفرقة الناجية بين الفرق والطائفة المنصورة التي قال فيها النبي ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة"، وفي رواية: "لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم"، والسلفيون في كل عصر هم الفئة الذين قال فيهم الرسول ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك"[1].

لماذا كانت هذه التسمية؟

هذه التسمية اختصار لتعريف مطول فالقول بأن فلانا سلفي يعني أنه ليس خارجياً مستحلاً دم المسلم بالمعصية، وليس رافضياً ممن يكفر الصحابة، وليس محرفاً متأولاً بالباطل ممن ينفي صفات الله ويحرف معانيها، وليس مشبهاً لله بخلقه وليس حلولياً أو اتحادياً ممن يقول بالوحدة أو الحلول، وليس صوفياً، وليس قبورياً ممن يعبد القبور لها ويقدم النذور، وليس مقلداً متعصباً ممن يلتزم قول إمام بعينه ولو علم أنه يخالف الآية والحديث.. فكلمة السلفي هي تعريف مختصر يختصر كل الاحترازات السابقة.

وليست السلفية بعد ذلك نسبة إلى إمام بعينه أو شيخ خاص، وإنما هي المنهج والطريق الذي سار فيه الصحابة والخلفاء الراشدون والأئمة المرضي عنهم والتابعون لهم بإحسان

---

(١) أخرجه مسلم في "الإمارة"، باب: قول النبي ﷺ لا تزال طائفة- (ح١٩٢٠) من طريق ثوبان.

إلى يوم الدين.

الأصول العلمية للدعوة السلفية:

تقوم السلفية على ثلاثة أصول علمية أساسية: هي التوحيد، والاتباع، والتزكية، وهذه بعينها هي أركان الدين ومقاصد الدعوة التي بعث بها جميع الرسل من لدن آدم إلى محمد عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه.

فالتوحيد هو عماد الدين وهو الذي من أجله بعث الله رسله إلى العالمين كما قال تعالى ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[1].

وهو يعني عبادة الله وحده لا شريك له، بكل أنواع العبادة التي شرعها: الظاهرة: كالصلاة والصوم والحج، والنذر والذبح، والطواف ومفردات ذلك، والباطنة: كالخوف والرجاء، والحب والتوكل والإنابة.. الخ.

وأما الاتباع فهو إفراد الرسول ﷺ وحده بالمتابعة فلا تشريع إلا بما جاء به، ولا دين إلا ما قرره وأقره، وهذا معناه أن كل فرد بعده ﷺ يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا هو ﷺ.

وأما التزكية فهي إصلاح النفس وفق المنهج الرباني ولا يكون ذلك إلا بأداء الفرائض، ثم الإكثار من النوافل والتزام طاعة الله ورسوله في ذلك، فلا عبادة إلا بما شرع الله، ولا تقرب إلا بما رسم رسول الله ﷺ.

أهداف الدعوة السلفية المعاصرة:

للدعوة السلفية المعاصرة أهداف عظيمة في الحياة أهمها:

١- توحيد المسلمين تحت عقيدة واحدة. ومنهج تشريعي واحد وذلك حتى يسهل إقامة الأمة الواحدة التي تنضوي تحت علم واحد وإمام واحد.

٢- بناء المسلم الطيب الزكي النفس الموحد البعيد عن الشرك والتعصب والخرافة والجهل.

---

(١) التوبة: ٧١.

٣- تنقـــية المجتمع الإسلامي من الشرك والبدع والخرافات والخلاعة والمجون، وذلك بإيجاد (المحضن) النظيف الذي يصلح لتربية أجيال المسلمين.

٤- محاربـــة الانحـــلال والأفكار الدخيلة التي اجتاحت شباب الإسلام وخاصة أفكار الملاحدة والشيوعيين والزنادقة.

٥- تخليص العالم الإسلامي من أعداء الإسلام الذين غزوا دياره، ومزقوا شمله، وفرقوا أوطانه لتقوم للمسلمين أمتهم ودولتهم العزيزة"[1].

أهم قواعد المنهج السلفي:

١- الالتـــزام بالكتاب والسنة مصدراً للتشريع ومرجعاً عند كل خلاف، وتطبيقاً في الحـــياة، والحكم بهما على كل قول، وعدم تقديم أي قول يخالفهما مهما كان قائل هذا القول.

٢- جعل توحيد الله هو الأساس والمنطلق والخاتمة والنهاية.. والتوحيد يعني إثبات ما أثبـــته الله لنفـــسه وأثبته له رسوله بغير تحريف ولا تمثيل، وعبادة الله وحده لا شريك له، وتطبيق شرعه في الأرض وفي كل شأن من شئون حياتنا.

٣- التمـــسك بوحدة الأمة وعدم السماح بتمزيقها وتفريقها في مناهج عقائدية، أو مذاهب فقهية أو عصبيات حزبية.

٤- التفـــريق الـــدائم بين الحق والباطل والشرك والتوحيد، والسنة والبدعة، والنصح الدائم لله وكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم كما قال رسول ﷺ.

أسباب تكون السلفية وانتشارها:

تـــتعدد الأسباب التي يبديها المتحدثون عن السلفية المعاصرة تعدد المتحدثين أنفسهم فمثلا القوميون والعلمانيون يرجعون تكون المنهج السلفي وأسباب انتشاره إلى أمور على رأســـها هزيمة العرب في حزيران ١٩٦٧م المعروفة بنكسة ٦٧، على حين يرى السلفيون لذلك أسبابا أخرى تاريخية – نراها الأهم والآكد- ولذلك نطرح أهمها:

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الخالق.

الإسلام نفسه لأنه الدين الأحق بالاتباع وبتنظيم حياة البشر ولأنه الدين الذي يرضاه الله.. ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾[1].. بل إن الله لا يرضى دينا غيره.. ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[2] وإذن فالطبعي والبدهي هو الإسلام وما عساه من مختلف الأديان هو الشذوذ، وكون الإسلام هو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه وكون المنهج السلفي والسلفيين يتقصون حياة السلف الصالحين من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أهل القرون المفضلة فإذن على منهجهم أن يسود المجتمعات المسلمة في كل بلد ويصبح الإسلام وبعث محمد وإنزال الله الوحي تكون جميعا السبب الأول للوجود السلفي وكون هذا هو الحق فإنه لا يستغرب من شيوع الحق وانتشاره.

السبب الأقرب إلى المباشرة من هذا السبب السابق هو دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الدعوية الجهادية التي أحيت المنهج السلفي القديم المتبلور على يدي الأئمة الأربعة وبالأخص الإمام أحمد بن حنبل وحنابلة القرن الرابع الذين أطلقوا هذا اللقب (سلفية) على أنفسهم في مقابل (خلفية) الذي راج على ألسنة الأشاعرة ومن إليهم، ثم شيخ الإسلام أحمد بن تيمية في القرنين السابع والثامن الذي أكثر من ذكر هذا الاسم (سلفية) وحدد له ملامح واضحة، ثم جاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب فنصر هذا المنهج فقد تتلمذ على كتابات السلفيين من أمثال ابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن كثير، واتخذ مذهب الإمام أحمد مذهبا له في الفقه، وبتعاون الإمام محمد بن سعود أمير الدرعية مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب دخلت الدعوة طورها الجهادي (القتال في سبيل الله من أجل نشر الدعوة السلفية) وتكونت على إثر ذلك الدولة السعودية بأطوارها الثلاث التي مولت الدعوة السلفية ورعت العلماء لينشروها بدورهم في ربوع العالم الإسلامي.

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) آل عمران: ٨٥.

من أهم أسباب تكوين وتبلور وانتشار المنهج السلفي عموما هو انتشار وشيوع الشركيات والبدع والأفكار الهدامة والعقائد الباطلة وتفرق الأمة التي دعت جميعها المخلصين من المسلمين إلى التمسك والاعتصام بالوحي المحمدي (الكتاب والسنة) والبحث عن حلول للأزمات التي افتعلها الكافرون والمبتدعة والفرق الضالة فتكوّنت لدى السلفيين ردود مقنعة بل ومفحمة على كل مسألة خاض فيها هؤلاء كالقدر والإرجاء والتكفير والرفض وخلق القرآن والتأويل الفاسد لنصوص الوحي والحاكمية... إلخ، وهي عقائد وأفكار أصبحت تشكل -مع أصول الإيمان وأركان الإسلام والهيئة والمظهر الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم السلفي- ملامح المنهج السلفي المعاصر.

وقد اختار السلفيون منذ وقت بعيد استبدال منهج تعبئة الجماهير تحضيرا للثورة السياسية بمنهج الدعوة والتعليم عبر المساجد والمعاهد والمؤسسات الإسلامية، لتخريج العلماء والدعاة سليمي العقيدة والعبادة الذين يعول عليهم في توجيه الآخرين وإعادتهم إلى الدين الصحيح والقضاء على مختلف مظاهر الشرك والبدع والفسوق الأخلاقي في حياتهم.

أساليب ووسائل توصيل الدعوة السلفية:

يرى غالب العلماء السلفيين المعاصرين أن "وسائل الدعوة اجتهادية... لأن الحكم علي الشيء فرع عن تصوره، فمن لم يفرق بين العبادة (بمفهومها العام) والعبادة (بمفهومها الخاص)، و لم يفرق بين (العبادات المحضة) و لم يفرق بين (ما وافق الشرع) و(ما نطق به الشرع) فإنه سيقع في هذا التخليط الذي وقع فيه من قالوا بأن الوسائل توقيفية في وسيلتها وغايتها)، والوسيلة لا تبررها الغاية..."

"فالأصل في وسائل الدعوة الحادثة في هذا العصر أنها مشروعة، ما لم تخالف أدلة الشرع ومقاصده، علي أنه لا يجوز أن نبدع من يقول بأن وسائل الدعوة توقيفية، أو نخرجه من دائرة أهل السنة والجماعة"

لكن "الواجب على العلماء البداءة بما بدأ به الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما يتعلق

بالمجامع الكافرة والبلدان غير الإسلامية وذلك بالدعوة إلى توحيد الله، وترك عبادة ما سواه، والإيمان به وبأسمائه وصفاته، وإثباتها له على الوجه اللائق به ﷻ، مع الإيمان برسوله ﷺ ومحبته واتباعه، كما أن عليهم دعوة المسلمين في كل مكان إلى التمسك بشريعة الله والاستقامة عليها ونصح ولاة الأمور ومساعدة المحتاجين ومواساتهم. كما أن على العلماء أن يستمروا في الدعوة إلى الله والحرص على الأعمال الخيرية وزيارة ولاة الأمور وتشجيعهم على الأعمال الحسنة وحثهم على تحكيم الشريعة وإلزام الشعوب بها عملاً بقول الله ﷻ: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[1]، وقوله ﷻ: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾[2].

ومن أهم وسائل وأساليب الدعوة لدى السلفيين المعاصرين ما يلي:

المناصحة وما يلحق بها من مثل المكاتبة والزيارة.. يقول سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله: (... ولكن إن كنت من أنصار السنَّة تشاركهم في الخير، وإذا غلطوا تنصح لهم، إذا تساهلوا تنصح لهم، الواجب: مناصحة ولاة الأمور، والكتابة إليهم، والشفاعة لهم في الخير، وزيارتهم. لكن إذا زرته.. هذا الوزير، أو هذا المدير، أو هذا الرئيس، ونصحته لله أو كتبت له كتابة مناسبة متواضعة فيها الرفق والحكمة نفع الله بها كثيراً، أو كفى بها شراً كثيرا. بهذا تتسع الدعوة، وتنتشر الدعوة في البلاد بالنصيحة والرفق والحكمة والمشاركة في الخير تنتشر الدعوة... على العلماء وطلاب العلم أن ينصحوا ويوجهوا النصيحة لولاة الأمور بالكتابة بالزيارة، بالنصيحة الطيبة، بالكتابة الطيبة"... يقول سبحانه: ﴿**وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ**﴾[3] اهـ.

---

(١) النساء: ٦٥.

(٢) المائدة: ٥٠.

(٣) العصر: ١-٣، من شريط بعنوان : "من أخلاق المؤمنين".

العمل والاقتداء:

بمعنى أن يكون الأخ السلفي مثالا يحتذى فيما يعمل وفيما يدع؛ فيكون بذلك قدوة لغيره لاحتذاء عمله وتركه، بل وفي احتذاء هيئته وشكله من مثل: الالتحاء وتقصير الثياب وارتداء الحجاب والنقاب الشرعيين... إلى آخره من مظاهر السلفيين المعاصرين.

والحق أن هذا من أنجع الأساليب والعوامل التي أدت إلى نشر الدعوة السلفية، برغم ما ينتاب الإخوة السلفيين من نوائب على يد الأنظمة الحكومية التي لا تقوم على الإسلام ولا ترعاه، أو تلك التي تحاربه، وبرغم ما يرمى الأخوة السلفيون به من سوء معاملتهم للعامة التي إلى الآن لم يقتنع العامة بهذه الدعاوى الهدامة و لم تمنعهم من الانخراط في الجماعة السلفية أفرادا وجماعات.

الكتب والخطب التي تدعو إلى المنهج السلفي وتنشره وتشرحه وتبينه وهي كثرة كاثرة بحيث أصبحت من الظواهر الواسمة للعصر الحاضر في كل بلاد الإسلام برغم محاربة الحكومات غير الشرعية لها في كل البلاد الإسلامية وغير الإسلامية على سواء، وهي تحاربها عن طريق المصادرة والحظر واعتقال واضعيها ومؤلفيها وموزعيها ومقتنيها كلهم على السواء أيضا، ويحقق الكتاب الديني في أي مجال والشريط الذي يشمل درسا أو خطبة دينية مبيعات قياسية بالنسبة لغيره في المجالات الأخرى حتى المجون برغم كثرة الماجنين وبرغم غلاء الأسعار وعوامل الفقر والعوز الشامل لغالب المسلمين وخاصة الملتزمين منهم.

يحبذ السلفيون **شبكة المعلومات العنكبوتية العالمية (الإنترنت)** ويحسنون التعامل معها والإفادة منها وكأنهم صانعوها، فيتواصلون مع بعضهم البعض من خلالها وينشرون المذهب السلفي عبرها وهي من أعصى الوسائل على المحاربين للسلفية والفكر والدين بصفة عامة برغم محاولتهم المتكررة لإغلاق المواقع الإسلامية، وللسلفيين المعاصرين مواقع عديدة على شبكة المعلومات هذه وهذه المواقع في ازدياد دائم وتكاد تغطي على ما سواها

من المواقع الإباحية وتلك التي تبث الفكر الهدام، وللسلفيين المعاصرين مئات المواقع التي في الغالب توصف بالإسلامية وأحيانا المواقع العربية والإسلامية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر مواقع (الشبكة الإسلامية، إسلام أون لاين، الإسلام اليوم، صيد الفوائد، موقع الإسلام...) من المواقع العامة التي تقدم الإسلام بشموليته وتواكب الواقع المعاصر.. كما تتعدد المواقع الإسلامية السلفية المتخصصة في العلم أو ما يخص المرأة أو الحركات أو القضايا الإسلامية...إلى آخره.

ويستبعد السلفيون طرقا عصرية أخرى يتبعها المنتمون لبعض الجماعات الإسلامية المخالفون لهم -وربما تكون هذه الوسائل والطرق من أهم أسباب ومسائل الخلاف- ويرى فيها السلفيون المعاصرون أساليب غير ناجعة بل مضرة ومنها:

المظاهرات والمسيرات والتهديد بالتخريب والاغتيال.. يقول الشيخ ابن باز -رحمه الله-: "الأسلوب الحسن من أعظم الوسائل لقبول الحق، والأسلوب السيئ العنيف من أخطر الوسائل في رد الحق وعدم قبوله، أو إثارة القلاقل والظلم والعدوان والمضاربات، ويلحق بهذا الباب ما يفعله بعض الناس من المظاهرات التي تسبب شرًا عظيماً على الدعاة، فالمسيرات في الشوارع والهتافات ليست هي الطريق للإصلاح والدعوة. فالطريق الصحيح: بالزيارة، والمكاتبات بالتي هي أحسن فتنصح الرئيس، والأمير، وشيخ القبيلة بهذه الطريقة، لا بالعنف والمظاهرة، فالنبي ﷺ مكث في مكة ثلاث عشرة سنة لم يستعمل المظاهرات ولا المسيرات، ولم يهدد الناس بتخريب أموالهم، واغتيالهم، ولا شك أن هذا الأسلوب يضر بالدعوة والدعاة، ويمنع انتشارها ويحمل الرؤساء والكبار على معاداتها ومضادتها بكل ممكن، فهم يريدون الخير بهذا الأسلوب، لكن يحصل به ضده، فكون الداعي إلى الله يسلك مسلك الرسل وأتباعهم ولو طالت المدة أولى به من عمل يضر الدعوة ويضايقها، أو يقضي عليها. ا.هـ"[1]

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية- العدد : ٣٨ صـ ٢١٠ باختصار.

ويقول أيضا: "أما ما يقع من الناس الآن من المسيرات، والمظاهرات، والاغتيالات هي تضر الدعوة تضرها، ما فيها خير، تضر ولا تنفع"[1].

الظهور في أجهزة التلفاز إلى جانب الدعاوى للكفر والمنطلقات غير الإسلامية كالقومية والعلمانية وزمالة الأديان وكذلك إلى جانب العاريات والراقصات والفنون الهابطة وما يصاحب البرامج الدعوية من موسيقى يحرمها الشرع الإسلامي فمشايخ الدعوة السلفية قليلو أو عديمو الظهور على القنوات الفضائية أو المحلية خاصة في الدول العلمانية ومن هؤلاء المشايخ في مصر.. يرفضون الظهور في مثل هذه القنوات لهذه الأسباب ولأسباب أخرى.

دخول البرلمانات، ولا يستبعدونها جميعا، ونرى أن الحق فيها أن ينظر إن كان العمل في هذا البرلمان شرعيا قُبِل العمل فيه وتوصيل الدعوة إلى الله من خلاله أما إن كانت قوانينه وضعية وحكما بغير ما أنزل الله امتنع العمل فيه، ويكون حينئذ ليس من وسائل توصيل الدعوة إلى الله بل من وسائل هدمها.. يقول أحد السلفيين المعاصرين: "وهذه الوسيلة تعبدية محدثة فسبيلها الرد ابتداء، وذلك لأن الوسائل الدعوية كغيرها من الوسائل التي يستخدمها المسلمون في حياتهم، متطورة من عصر إلي عصر، ويكفي فيها أن تكون محكومة بالضوابط الشرعية، والفرق واضح بين جعل الشيء تعبديًّا توقيفيًّا، وبين كونه محكومًا بالحكم الشرعي".

---

(١) السابق.